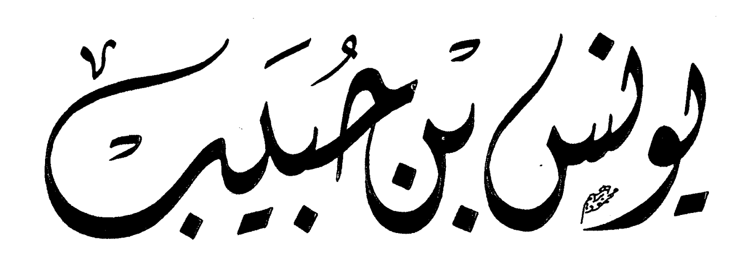


تأليف

الدكتور حسين نصّار

أستاذ الأدب العربى

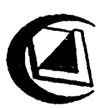
عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة «سابقًا»

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع	١٤٧٨٨/ ٢٠٠١
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 341 -060 -9



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد ـ الظاهر ـ القاهرة
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لو كانت مدينة غير البصرة لاحتاجت إلى تعريف، ولو كان غير القرن الهجرى الثانى لاحتاج إلى وصف. ولكن عندما يجتمع الأمران نستغنى عن كل حديث. فما أبرز صورة البصرة، وأوضحها وأجملها، فى ذهن كل متصل بالثقافة العربية، فى القرون الأولى.

وكان علم العربية – الذى توافرت عوامل عدة فى القرن الأول جعلت العرب وغير العرب يتنبهون إليه، ويتحدثون فى بعض مسائله، ويخوضون فى بعض مشاكله – كان هذا العلم قد أخذ عوده يشتد ويزكو، وأغصانه تلتف وتورق ويؤتى ثمارا شهية.

فأحاط به – فى القرن الثانى – رجال أمثال عبد الله بن أبى إسحاق، وأبى عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، وأبى الخطاب الأخفش، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب، وسيبويه، فى البصرة؛ وأمثال الرؤاسى والكسائى ومعاذ الهراء فى الكوفة.

وكل هؤلاء الرجال مشهورون فى "علم العربية" الذى صار بعد، علوما متفرقة من لغة، ونحو، وصرف، وبلاغة. ولكن تفاوت حظهم من الشهرة، فتفاوت حظهم من عناية الناس بهم، سواء من عاصرهم أو جاء بعدهم، إلى يوم الناس هذا. فكان منهم من تمتع ولا زال بالأضواء كسيبويه. وكان من تمتع بها ثم خبت مع

الزمن. فعسر علينا أن نتبين له صورة واضحة دقيقة، أو أظلمت علينا أجزاء من صورته.

والرجل الذى أكتب عنه يعطينا مثالا بارزا لما قلت. فقد كان من أعلام البصرة إبان ازدهار الثقافة بها، بل كان أحد علمين شغلا الناس فى علم النحو، ثم جار عليه الاهمال، فلم يجد من يكتب عنه، ويقدره حق قدره.

وإنى آمل أن أستطيع – فى هذه الدراسة – أن أبرز له "صورة حية"، إن فاتها كثير مما يتصل بحياته، فعذرها أن ذلك لم يكن منها عن عجز أو إهمال أو نسيان أو غفلة، بل كان اضطرارا لضياعه.

أما ما بقى من الرجل وعنه فقد تتبعته هذه الصورة، ووضعته معا، وأعادت النظر إليه، حتى التقطت المتناسق والمترابط ووضعت كلا مع رصيفه.

ثم أخذت المنفرد، والمتنافر، وحاولت أن تستنبط الروابط بينه. وأخيرا كان النفى لما لا يلتئم مع الصوزة، وكان النفى معللا.

وكانت ثمرة ذلك كله "هذه الصورة" التى أضعها بين يدى القارئ راجيا أن أكون قد أبرزت فيها معالم الرجل، وحددتها، وأكملت الساقط منها، فيستطيع كل قارئ أن يتعرف عليه وأن يقدره.

الباب الأول

الرجل

الفصل الأول

حياته

اتفق أكثر من كتب عن الرجل الذى أسعى وراءه، على كنيته واسمه. فهو عندهم أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب. ولم يخرج على هذا الاتفاق غير من كناه ابن النديم[1] "أبا سعيد" وروى عنه أن كنية يونس أبو محمد. ولم يتابعه أحد فى هذه الكنية. وقد أخفى هذا الاتفاق وراءه اختلافا فيمن يسمى "حبيب"، لأنه من الأسماء المشتركة التى تطلق على الرجال والنساء.

وصور ابن خلكان[2] هذا الاختلاف فقال: "حبيب اسم أمه – ولهذا[3] لا يصرفونه – فإنه لايعرف له أب. ويقال إنه ولد ملاعنة[4]. ويقال إنه اسم أبيه؛ فينصرف . وا لله أعلم . وكذلك محمد بن حبيب النسابة أيضا" . وإلى الرأى الأول

---

(١) الفهرست ٤٢.

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ٧١٤.

(٣) يريد للعلمية والتأنيث.

(٤) الملاعنة بين الزوجين: أن يقذف الرجل امرأته أو يرميها برجل أنه زنى بها، فالامام يلاعن بينهما. ويبدأ بالرجل ويقفه حتى يقول: "أشهد با لله أنها زنت بفلان، وأنى لصادق فيما أرميها به". فإذا قال ذلك أربع مرات، قال فى الخامسة: "وعلى لعنة ا لله إن كنت من الكاذبين فيما أرميها به". ثم تقام المرأة فتقول أيضا أربع مرات: "أشهد با لله أنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا". ثم تقول فى الخامسة: "وعلى غضب ا لله إن كان من الصادقين". فإذا فرغت من ذلك بانت منه، ولم تحلّ له أبدا. وإن كانت حاملا فجاءت بولد، فهو ولدها ولا يلحق بالزوج لأن السنة نفته عنه. سمى ذلك كله لعنا وملاعنة لقول الزوج: "على لعنة ا لله إن كنت من الكاذبين" وقول المرأة: "على غضب ا لله إن كان من الصادقين".

ذهب الفيروز آبادى[1]، حين قال: "حبيب أمه، ولم أقف على اسم أبيه".

ولكن أبا أحمد العسكرى[2] روى خبرا، إن صح أبطل هذه الأقوال، قال: "أنشدنا الهزاني قال: أنشدنا الرياشي قال: حدثنا ابن أبى رجاء قال: حدثنا أبو ثوبان: قال يونس: "أرسلنى أبى إلى رؤبة أسأله: كيف ينشد هذا البيت:

أبنى لبينى لستم بيد   إلا يد ليست لها عضد

أم يدا؟ فقال: كيف شئت". فالخبر يصرح أن "أباه" هو الذى أرسله إلى رؤبة مستفهما.

وبالرغم من ذلك فإنى أشك فى هذا الخبر، أو فى صورته هذه. فلم أجد أحدا ممن أرخ للغويين والنحويين ترجم لهذا "الأب"، ولم أجد أحدا روى عنه أو أورد أخبارا أخرى عن يونس عنه. وأظن أن تحريفا وقع فى نص الخبر، وأن صحته "أرسلنى أبو عمرو إلى رؤبة أسأله"، فسقط "عمرو" فغير أحد النساخ "أبو" إلى "أبى".

وتتكرر الظاهرة نفسها فى أمر آخر. فقد أجمع المؤرخون على أن يونس مولى، ثم اختلفوا فيمن ارتبط به بالولاء. وكان ابن خلكان[3] أيضا الذى أحسن تصوير الاختلاف فى قوله: "قال أبو عبد الله المرزبانى فى كتابه "المقتبس فى أخبار النحويين": هو مولى ضبة، وقيل: هو مولى بنى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وقيل: مولى بلال بن هرمى، من بنى ضبيعة بن بجالة".

---

(١) تحفة الأبيه ١١٠.

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٣٦٣.

(٣) وفيات الأعيان ٢: ٤١٦.

واقتصر ياقوت[1] على ذكر القبيلتين، فقال: "الضبي"، وقيل :الليثي، بالولاء". ورجح المبرد ولاءه إلى ثانيتهما، روى القفطي[2] : "قال المبرد محمد بن يزيد: يونس بن حبيب أبو عبد الرحمن، أراه مولى بني ليث". ومال أبو الحسن الخزاز إلى ذلك استنباطا، قال[3] : "أراه مولى لبني ليث.. لا أحقه، ولكنه كان يكون مع هؤلاء، فلا أدري هو مولى أم لا".

ولكنني أعتقد أن الحكم في هذا الأمر تلميذه أبو عبيدة معمر بن المثنى[4]، الذي أعلن ولاءه لبلال، من بني ضبيعة، وهو الذي ذكره جرير في قوله:

يا ضب، على أن تصيب مواسمي　　　كوزا على حنق ورهط بلال

ونستبين من قصيدة جرير أن بلالا من بني ضبة، فولاء يونس له ولاء لبني ضبة، فلا خلاف بين نسبته بالولاء إلى الرجل أو إلى قبيلته.

ويتبادر إلى الذهن من هذه الأقوال أن يونس فارسي الأصل. ولكن بروكلمان[5] له رأي آخر ليس ببعيد، قال: "زعم مصنف "مفاخر العجم" أنه أعجمي.. ولكنه يجوز أن يكون أيضا من النبط الآراميين".

ولا خلاف بين المؤرخين أنه ولد في جبل، وهي بلدة صغيرة بالعراق على دجلة، ذكر ابن خلكان[6] أنها بين واسط وبغداد، وذكر

(١) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤.

(٢) إنباه الرواة – المجلد الثاني ٣٦٤.

(٣) الفهرست ٤٢.

(٤) شرح النقائض ١ : ٣٣٢.

(٥) تاريخ الأدب العربي ٢:١٣٠ وانظر الفهرست ٤٢.

(٦) وفيات الأعيان ٢: ٤١٧.

ياقوت[1] أنها بين واسط والنعمانية. ولا تناقض بين القولين، غير أن قول ياقوت أدق. فآثار البلدة تقوم الآن في لواء الكوت، بين مدينتي الكوت والحسينية، مقابل أم البني، عند خط طول ٤٢َ – ٤٥ ° شرقا وخط عرض ٣٣ َ – ٣٢ ° شمالا.

وكان يونس لا يحب أن ينسب إلى بلدته، أو يذكر بها. روى الأصمعي[2] أنه لقيه رجل من ولد أبي عمير، فأراد أن يسخر منه، فقال: " يا أبا عبد الرحمن، ما تقول في "جبل" : أينصرف؟" فسبه. والتفت العميري فلم ير أحدا يشهده عليه. فتركه حتى إذا كان من الغد، وجلس يونس للناس، أتاه العميري وأعاد السؤال: "يا أبا عبد الرحمن، ما تقول في "جبل" : أينصرف؟" فرد عليه يونس : "الجواب ما قلت لك أمس" . ولعل سبب هذه الكراهية أن جبل تذكره بمولده غير الكريم، أو بأصله غير العربي، وخاصة إن كان من الأنباط، الذين لم يحترمهم العرب.

مولده

اختلف العلماء في السنة التي ولد يونس فيها اختلافا حكاه ابن خلكان[3] في قوله: "مولده سنة تسعين .. وقيل : مولده سنة ثمانين". واقتصر السيوطي[4] على التاريخ الأول، وياقوت[5] على الثاني. ونقل ابن الجزري[6] أن وفاته كانت في سنة ١٨٥هـ عن ٨٨ سنة، ويعني هذا أنه ولد في سنة سبع وتسعين هجرية أو ما قاربها.

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣.

(٢) القفطي ٢: ٣٦٤ . ابن خلكان ٢ : ٤١٧.

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٦.

(٤) بغية الوعاة ٣٦٥.

(٥) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٧.

(٦) غاية النهاية ٢: ٤٠٦.

ولكننا نعرف أنه أخذ عن حماد بن سلمة، وأن محمد بن سلام الجمحي سـأله: "أيما أسن: أنت أو حماد؟" فقال: هو أسن مني، ومنه تعلمت العربية"[١]. ولم أجد من ذكر مولد حماد، ولكنهم أعلنوا أنه مات في سنة ١٦٥ أو ١٦٧، أو ١٦٩هـ بعد أن كبر وأهتر، كما قال بعضهم؛ وقارب الثمانين، في قول بعضهم الآخر. وإذن فمولد حماد بين سنتي ٨٥، و ٨٩هـ أو قريبا منهما. ويقطع هذا باستحالة أن يكون مولد يونس في سنة ٨٠هـ.

وذكر ابن خلكان[٢] أنه "كان يقول: أذكر موت الحجاج .. وقيل: إنه رأى الحجاج". ولما كان الحجاج بن يوسف الثقفي – المعنى بهذا الكلام – قد مات في سنة ٩٥، كان القول بأن يونس ولد في سنة ٩٧ غير صحيح.

ولا يبقى عندنا غير سنة ٩٠، وهي التي تصلح لأن تكون مولدا ليونس على كل الأقوال. ويرجحها أيضا سؤال ابن سلام الذى يدل على أن الفرق بين عمرى حماد ويونس كان من الضآلة بحيث يشتبه على الناس ويحتاج إلى السؤال عنه.

وفاته

طال العمر بيونس حتى ثقلت حركته. قيل إنه دخل المسجد يوما وهو يتهادى بين اثنين من الكبر. فقال له رجل كان يتهم مودته: "بلغت ما أرى، يا أبا عبد الرحمن!" فقال له: "هو الذى ترى فلا بلغته"[٣]. وكثيرا ما كان ينشد قول الشاعر:

---

(١) نزهة الألباء ٢٦ . السيرافي ٣٤.

(٢) الوفيات ٢ : ٤١٦.

(٣) أبو الطيب ٢١ ابن خلكان ٢: ٤١٧. القفطي ٢ : ٣٦٣. الحيوان للجاحظ ٥ : ٥٩١ ابن الجزري ٢ : ٤٠٦. نزهة الألباء ٣٤. عيون الأخبار ٢ : ٣٢٠. المعمرون ٧٢ . أمالي المرتضى ١ : ٢٥٧.

حنتني حانيات الدهر حتى   كأني خاتل يدنو لصيد
قريب الخطو يحسب من رآني   -ولست مقيدا- أني بقيد

اتفق المؤرخون على هذا، ثم اختلفوا في قدر عمره، والسنة التي توفي فيها، واقتصر أكثرهم على إيراد الأقوال المتنازعة دون ترجيح.

وأقل ما قالوا من أعوام عاشها يونس ٨٨ سنة، وأعتقد أن الذين أتوا بهذا الرقم اعتمدوا على قول لاسحاق بن إبراهيم الموصلي[١]؛ وعلى هذا القول نفسه اعتمد السيوطي حين قال إنه قارب تسعين سنة[٢]. وحكى ابن خلكان فيما حكى عن المرزباني أنه عاش ٩٨ عاما[٣]. وكان من الروايات التي أوردها ابن الجزري وابن قاضي شهبة أنه قارب المئة[٤]، ولعلهما اعتمدا في ذلك على قول المرزباني السابق. وصرح اللغوي المعروف ثعلب[٥] أنه جاوز المئة. وكان أطول عمر وهبوه للرجل مئة سنة واثنتين[٦].

وأغرب الروايات في وفاته ما نقله بروكلمان[٧] عمن يقول إن ذلك كان في سنة ١٥٢هـ. فالمعروف أن سيبويه مات قبل جماعة كان قد أخذ عنهم كيونس وغيره[٨]، وأن سيبويه مات في سنة ١٦١ أو بعدها.

(١) ابن خلكان ٢ : ٤١٦. القفطي ٢ : ٣٦٦. ابن قاضي شهبة ٢٥٢ . الفهرست ٤٢.
(٢) البغية ٢: ٣٦٥.
(٣) الوفيات ٢ : ٤١٦ ، ٤١٧.
(٤) الغاية ٢: ٤٠٦ . الطبقات ٢٥٢.
(٥) نزهة الألباء ٣٤. القفطي ٢ : ٣٦٥، ٣٦٦ ابن الجزري ٢ : ٤٠٦ . ابن قاضي شهبة ٣٥٢. الفهرست ٤٢.
(٦) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ ياقوت ٢٠ : ٦٧ ابن العماد ١: ٣٠١.
(٧) تاريخ الأدب العربي ٢ : ١٣٠.
(٨) السيرافي ٣٧.

ثم تجمع سائر الأقوال على أن وفاة يونس كانت فى العقد الثامن بعد المئة. وقد أجمل رجلان القول ولم يحدداه، قال ابن العماد[1] فى وفيات سنة ١٨٢هـ : "وفيها وقيل قبلها أو بعدها توفي يونس". وقال ابن الجزرى[2] : "توفى بعد اثنتين وثمانين ومئة".

أما بقية الرجال فقد حددوا سنوات تقع بين ١٨٢ و ١٨٥. فانفرد ابن خلكان وابن الجزرى[3] بإيراد قول يصرح أن الوفاة وقعت سنة ١٨٥هـ، وأوهما بإيراد قول عبد الباقى بن قانع الذى أعلن أن ذلك كان سنة ١٨٤هـ. وتتكاثر الأقوال حول السنتين الباقيتين، فاتفق الزبيدى والجاحظ وياقوت وأبو الطيب والقفطى وابن قاضى شهبة والسيوطى على سنة ١٨٢[4] ، والسيرافى وثعلب وابن الأنبارى والقفطى على سنة ١٨٣هـ[5] .

أخلاقه

إذا أردنا أن نتعرف مذهب الرجل ودينه وجدنا أمامنا بعض الأقوال المتناثرة التى تلقى عليه بعض الأضواء.

قال إبراهيم الحربى[6] إن أهل العربية كلهم أصحاب أهواء، إلا أربعة فإنهم

---

(١) شذرات الذهب ١ : ٣٠١.
(٢) غاية النهاية ٢ : ٤٠٦.
(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٧. غاية النهاية ٢ : ٤٠٦.
(٤) مراتب النحويين ٢١. ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . السيوطى ٢ : ٣٢٥ . القفطى ٣ : ٣٦٥ ابن قاضى شهبة ٢٥٢ . بروكلمان ٢ : ١٣٠. الحيوان ٥ : ٥٩١ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٧.
(٥) السيرافى ٣٧ ابن الأنبارى ٣٤ ابن خلكان ٢ : ٤١٧ . القفطى ٢ : ٣٦٦ الفهرست ٤٢.
(٦) ابن الأنبارى ١٧ ، ٨٤ . ابن حجر تهذيب التهذيب ٣: ١٦٤.

كانوا أصحاب سنة: أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب البصرى، والأصمعى.

ولما كان الثلاثة الآخرون يتمتعون عند الدارسين بأقصى درجات الاحترام، ويشغلون أسمى مكانة، دل هذا على ما كان يتمتع به يونس من احترام وتبجيل.

ويؤيدنا فى هذا قولان آخران ينسبان إلى اثنين من أشهر العلماء والكتاب. قال أبو حاتم السجستانى[1]"فإذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها، أو حكيت عن العرب شيئا، فإنما أحكيه عن الثقات عنهم مثل أبى زيد والأصمعى وأبى عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم". ويمنحنا هذا القول مكانة يونس عند أتباع مدرسة البصرة فى اللغة خاصة.

أما القول الثانى فيمنحنا مكانة يونس عند الأدباء عامة، وفى مروياته. قال الجاحظ[2]"ومن أراد الأخبار فليأخذها عن مثل قتادة (بن دعامة السدوسى)، وأبى عمرو بن العلاء، وابن جعدبة (يزيد بن عياض الليثى)، ويونس بن حبيب، وأبى عبيدة، ومسلمة بن محارب.. فإن هؤلاء وأشباههم مأمونون، وأصحاب توقٍّ وخوف من الزوائد، وصون لما فى أيديهم، وإشفاق على عدالتهم".

وكان يونس حريصا ألا يخوض فى المسائل التى فرقت بين المسلمين. قيل إنه جرى ذكر القدر فى أحد مجالسه، فسئل عن رأيه فيه، فقال: "لا فكر لى فيه"[3].

---

(١) أبو الطيب ٩٠ المزهر ٢ : ٤١٠.

(٢) البغال (رسائل الجاحظ) ٢ : ٢٦٦ – ٨ .

(٣) القفطى ٢ : ٣٦٥.

ولكن حرصه هذا لم يمنعه من إبداء رأيه في بعض المسائل، التي كان الاختلاف فيها قليل الخطر. قال محمد بن سلام[1]: "سمعني يونس يوما أرادّ التميمية في خالد (بن الوليد، في قتله مالك بن نويرة في حروب الردة) وأعذره. فقال: "يا أبا عبد الله، أما سمعت بساقي أم تميم؟" - يعني زوجة مالك - "أو صارت أم تميم إلى خالد بنكاح أو سباء؟ وما عابه عليه عمر بن الخطاب قال: قتلت امرءا مسلما ووثبت على امرأته بعقرباء يوم بني حنيفة!".

بل بلغ من جرأته أن عاب بعض الأنبياء في تصرفات لهم. ذكر عمر بن شبة عن خلاد بن يزيد عن يونس قال[2] : "ثلاثة والله أشتهي أن أمكّن من مناظرتهم يوم القيامة: آدم عليه السلام، فأقول له: قد مكنك الله من الجنة وحرم عليك شجرة، فقصدت لها، حتى ألقيتنا في هذا المكروه؛ ويوسف عليه السلام أقول له: كنت بمصر وأبوك عليه السلام بكنعان، بينك وبينه عشر مراحل، يبكي عليك حتى ابيضت عيناه: لم ترسل إليه أني في عافية وتريحه مما كان فيه من الحزن؟؛ وطلحة والزبير أقول لهما: علي بن أبي طالب عليه السلام بايعتماه بالمدينة وخلعتماه بالعراق، لأي شئ أحدث؟ ".

وكان يونس رضى الخلق، يثني على أساتذته وزملائه وتلاميذه، ويعترف لكل منهم بفضله، ويبادر إلى تصديق أقوالهم، ويورد من الأقيسة ما يدعمها.

يتجلى لنا ذلك في موقفه من أستاذه عيسى بن عمر. روى ابن السيد البطليوسي[3] : "قال سيبويه: وزعم عيسى بن عمر أن ناسا من العرب يقولون: إذن

(١) طبقات فحول الشعراء ١٧٣.
(٢) السيرافي ٢٩ . ابن قاض شهبة ٢٥٢. نزهة الألباء ٣٣.
(٣) الحلل ٤١ ظ.

أفعلُ ذلك، فى الجواب، بالرفع. قال سيبويه: فأخبرت بذلك يونس فقال: "لا يبعد ذا ، ولم يكن ليروى إلا ما سمع، جعلوها بمنزلة هل وبل. أراد أنهم لم يُعملوها".

وأشاد بذكاء زميله، ومنافسه على رئاسة علم النحو فى البصرة، أحسن الاشادة. قال أبان بن رزين البصرى[1] : زعم يونس النحوى أن الخليل بن أحمد كان يستدل بالعربية على سائر اللغات ذكاء منه وفطنة.

وعندما برز واحد من تلاميذه فى العلم الذى منحه حياته لم يمتنع عن إيفائه حقه من التقريظ والتشجيع، وأشاع ذلك بين بقية تلاميذه. قال الفراء[2]: "دخلت البصرة فلقيت يونس وأصحابه، فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة".

واتجه تلميذ آخر له اتجاها يخالف اتجاه يونس بعض الشىء، فلقى فيه الشىء الكثير من النجاح والشهرة. فكان الأستاذ من المغتبطين بما لقى التلميذ، والمعترفين له باتجاهه وإجادته فيه، حتى لو كشف ذلك عن تقصير منه فيه. روى ابن عبد ربه عن مروان بن أبى حفصة قال[3]: "لما مدحت المهدى بشعرى الذى أوله:

طرقتك زائرة فحى خيالها   بيضاء تخلط بالحياء دلالها

أردت أن أعرضه على بصراء البصرة. فدخلت المسجد الجامع، فتصفحت الحلق فلم أر حلقة أعظم من حلقة يونس النحوى. فجلست إليه فقلت له: إنى مدحت المهدى بشعر، وأردت ألا أرفعه حتى أعرضه على بصرائكم، وإنى تصفحت الحلق فلم أر حلقة أحفل من حلقتك، فإن رأيت أن تسمعه منى فافعل. فقال: يابن

---

(١) ابن المعتز : طبقاته ٩٧.

(٢) السيوطى: المزهر ١ : ٢٠٢.

(٣) العقد الفريد ٥ : ٣٠٦ ولكننا يجب أن نتوقف فى هذا الخبر، لأنه روى أيضا بصورة تخالف الاستدلال به هنا.

أخي؛ إن ها هنا خلفا (الأحمر) ولايمكن أحدنا أن يسمع شعرا حتى يحضر، فإذا حضر فأسمعه..".

بل كان يقر بالاجادة لنظرائه من العلماء بالعربية، ولو كانوا من غير البصرة، إذا ما أبدوا الرأى المعجب ولو خالف ما عنده. قال محمد بن سلام[1]: "قدم الكسائى البصرة مع الرشيد. فجلس إلى يونس فى حلقته. فألقى عليه بعض من حضر المجلس بيتا للفرزدق:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف، والخمر

فأنشده هكذا. فقيل للكسائى: "على أى شىء رفعت الخمر؟ "فقال: "أضمرت فعلا كأنه قال: وحلت له الخمر". فقال يونس: "ما أحسن وا لله ما وجهته، غير أنى سمعت الفرزدق ينشد:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف، والخمر

جعل الفاعل مفعولاً، كما قال الحطيئةأ

فلما غشيت الهون والعير ممسك على رغمه، ما أمسك الحبل حافره

والقصيدة على الرفع، جعل الفاعل مفعولا. فقال الكسائى: "هذا على هذا وجه".

ولكن بعض الشبان فى حلقة يونس لم يعجب بمسلكه[2] وأراد أن يحرج الرجل ويتنقصه، فأخذ يوجه إليه السؤال بعد السؤال. ولكن يونس لم يرض عن هذا الأمر، وقال غاضبا: "تؤذون جليسنا ومؤدب أمير المؤمنين".

(١) القفطى: ٢ : ٣٦٧. شرح إعراب أبيات الجمل ١٠٢ ظ. وانظر البغية ٢ : ١٦٣.

(٢) السيرافى ٢٧ . مجالس العلماء ٢٤٤.

ويذكرنا هذا بموقف مشابه كان ليونس نفسه في شبابه. روى أبو عبيدة عن يونس قال[1] : "كنت عند أبى عمرو فجاءه شبيل بن عزرة الضبعى. فقام إليه وألقى له لبد بغلته، فجلس عليه ثم أقبل عليه يحدثه. فقال شبيل: "يا أبا عمرو، سألت رؤبتكم عن اشتقاق اسمه فما عرفه! " – يعنى رؤبة . فلم أملك نفسى عند ذكره فرجعت إليه ثم قلت له: "لعلك تظن أن معد بن عدنان أفصح منه ومن أبيه! أفتعرف أنت ما الروبة، والروبة، والروبة، والروبة؟ فأنا غلام رؤبة". فلم يحر جوابا وقام مغضبا. فأقبل عليَّ أبو عمرو وقال: هذا رجل شريف يقصد مجالسنا ويقضى حقوقنا وقد أسأت فيما فعلت مما واجهته به! "فقلت له: "لم أملك نفسى عند ذكر رؤبة" فقال أبو عمرو: "أو سُلِّطت على تقويم الناس؟".

فيونس قد أفاد من أبى عمرو أدبا تحلى به فى شيخوخته. ولكن هذا الأدب لم يمنعه من معارضة الكسائى، وتوجيهه إلى المسلك العلمى الحق فى بعض الأحيان. فقد سأل الشرادانى – من تلاميذ يونس – الكسائى[2] : "كيف تصغر حسينا؟ "فقال: "حسينين" فقال مستنكرا: "أتصغر مصغرا ؟ هذا ما لا نهاية له. فوثب رجل كان مع الكسائى على الشرادانى وقال: "أتقول هذا لمؤدب أمير المؤمنين؟ "فكان رد يونس الحاسم: "مغالبة العلم بالحجة لا بالسلطة".

ولعل هذا الأدب الذى تحلى به يونس هو الذى جعله يعتمد على الكناية حين

---

(١) فسر يونس لتلاميذه الروبات فقال: الروبة: خميرة اللبن. والروبة قطعة من الليل. ويقال: لا يقوم بروبة أهله: أى بما أسندوا إليه من أمورهم والروبة: جمام ماء الفحل. والرؤبة – مهموزا : القطعة التى يشعب بها الإناء. وانظر القفطى ٢ : ٣٦٤. المزهر ١: ٣٧٠ . المراتب ٢٢. مجالس العلماء ٣٠٣. سمط اللآلى ١٩٤.

(٢) العسكرى: شرح ١٢٦.

يريد أن يذكر بعض الصفات الكريهة فى بعض من يعرف. ولذلك قال عن خلف الأحمر حين اضطر إلى الحديث عنه[1]: "يضرب ما بين الكركى إلى العندليب".

ولم أعثر على ما يعيبه غير الخبر الذى يذكر أنه السبب فى مقتل بشار بن برد. روى أبو الفرج فى أحد أخباره[2] أن بشارا هجا الخليفة المهدى، والوزير يعقوب بن داود، فأفحش فى الهجاء. ثم أنشد هجاءه فى حلقة يونس، فسعى به إلى الوزير. فغضب ونقل الهجاء إلى الخليفة فأمر بقتله فقتل.

ولكن الخبر – بصورته السابقة – غير صحيح. فالحق[3] أن غزل الرجل الماجن، واشتهاره بالزندقة، ورثاءه أصدقاءه من الزنادقة الذين قتلهم المهدى، وأخيرا هجاءه للخليفة، كل ذلك أغضب الخليفة عليه. وعندما قدم المهدى إلى البصرة فى سنة ١٦٨ سأل عنه، فشهد أمامه شهود موثقون بأنه زنديق، فأمر بضربه حتى الموت. وكان يونس أحد هؤلاء الشهود، قال عند سؤاله[4]: "إن بشارا زنديق وقامت عليه البينة عندى بذلك".

وقد فرح يونس بمقتل بشار. قال سالم بن على[5] : "كنا عند يونس فنعى بشارا إلينا ناع، فأنكر يونس ذلك وقال: لم يمت. فقال الرجل: أنا رأيت قبره. فقال: أنت رأيته؟ قال: نعم وإلا فعلىّ وعلى؛ وحلف له حتى رضى. فقال يونس: لليدين وللفم".

---

(١) الجاحظ: الحيوان ٥ : ١٤٩، ٦ :٤٠٩.

(٢) الأغانى ٣ : ٢٤٣.

(٣) شوقى ضيف: تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الأول ٢٠٦.

(٤) الأغانى ٣ : ٢٤٦.

(٥) الأغانى ٣: ٢٤٧.

ولكن هذا الفرح لا يعيب الرجل، لأنه كان أحد أبناء البصرة، التى احتفلت بهذا الموت احتفالا خاصا. قال عمر بن شبة[1] : أمر المهدى عبد الجبار صاحب الزنادقة فضرب بشارا، فما بقى بالبصرة شريف إلا بعث إليه بالفرش والكسوة والهدايا. وقال أبو الفرج[2] : لما مات بشار ونعى إلى أهل البصرة تباشر عامتهم وهنأ بعضهم بعضا، وحمدوا الله، وتصدقوا، لما كانوا منوا به من لسانه.

وإذن فيونس برىء من تهمة الوشاية ببشار، ووصمة الشماتة بمقتله إذ لم ينفرد بذلك دون بقية كبار رجال البصرة.

وآخر ما وجدت من طباع يونس وأخلاقه أنه كان يشرب المطبوخ[3] .

(١) الأغانى ٣ : ٢٤٧.

(٢) الأغانى ٣ : ٢٤٨.

(٣) القفطى ٢ : ٣٦٥.

الفصل الثانى

طالب العلم

كان يونس بن حبيب يرفع قدر العلم حتى قال[1]: "علمك من روحك ومالك من بدنك".

وكان يرى أن علم العربية خاصة أمر ضرورى لكل رجل، لابد أن يحسنه علما وعملا، أو نظرا وتطبيقا، حتى يتحلى بالفصاحة والبيان. قال[2]: "ليس لعيى مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو بلغ يافوخه أعنان السماء".

لاعجب إذن أن يشتغل رجل هذه آراؤه بالعلم عامة، والعربية خاصة، بل أن يقبل عليه حتى ينسى كل شئ غيره. فكان أول ما ينسى طعامه وشرابه، قال[3]: "ما أكلت فى شتاء شيئا قط إلا وقد برد، ولا أكلت فى صيف شيئا إلا وقد سخن".

وكان مما نسى أو تشاغل عنه أسرته حتى اعتقد بعض الناس أنه لا أسرة له. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى[4]: "عاش يونس ثمانية وثمانين سنة، لم يتزوج ولم يتسرَّ، ولم يكن له همة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال". ولكن هذا القول غير صحيح، لأننا نعرف واحدا من أبناء يونس كان يسمى حرميا، روى القراءة عنه.

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ١٢١.

(٢) عيون الأخبار ٢: ١٧٥. البيان والتبيين ١ : ٧٧. ربيع الأبرار ٤ : ٩٩.

(٣) الجاحظ : الحيوان ٣ : ٤٦٩.

(٤) القفطى ٢: ٣٦٦ . ابن خلكان ٢: ٤١٦. البغية ٢ : ٣٦٥ الفهرست ٤٢.

شيوخه

ولا يذكر المؤرخون ليونس أين طلب العلم أولا، ولا متى، ولا فى أى سن. فلا ندرى هل كان ذلك فى بلدته الأولى أو كان فى البصرة، بل لا ندرى متى انتقل إلى البصرة. ولكن الذى نقطع به أنه أخلص حياته للعلم، وأنه طلبه فى كل مكان سمع أنه فيه، ومن كل مجال.

ونستطيع أن نلمح فى دراسته لونين، كانا شائعين فى عصره: دراسة منتظمة، وأخرى غير منتظمة. أما المنتظمة فكانت من علمى القراءة والعربية. فتلقى العلم الأول عن أبان بن يزيد العطار، والحسن بن عمران الشحام، وأبى عمرو بن العلاء[1]. وتلقى الثانى عن حماد بن سلمة وأبى عمرو أيضا[2].

وليس فيما بقى من أقوال يونس وأخباره صدى لهؤلاء الشيوخ، سوى أبى عمرو. فالأقوال التى نقلها عن حماد نادرة بل تكاد تكون معدومة، بالرغم أنه كان يفضله[3] . ومثال ما رواه عنه ما جاء فى نزهة الألباء[4]: "حكى أبو الحسن

---

(١) الفهرست ٢٨. النزهة ٢٦. الغاية ٢ : ٤٠٦. الوفيات ٢ : ٤١٦. معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤ . إنباه الرواة ٢ : ٣٦٣ . ابن قاضى شهبة ٢٥٢.

(٢) ابن سلام ١٤. المراتب ٢٢ . السيرافى ٢٧، ٣٤ . مجالس العلماء ٢٤٣. الأزهرى ٢٩. ابن النديم ٤٢. ابن الجزرى ٢: ٤٠٦ . ابن العماد ١ : ٣٠١ . المزهر ٢ : ٣٩٩ . البغية ٢ : ٣٦٥ . الشريشى ٢ : ٤٠٢.

(٣) النزهة ٢٧. قال ابن الأنبارى: "وحكى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب عن محمد بن سلام فى ترتيب النحويين من البصريين فقال: وحماد – يعنى حماد بن سلمة – كان يونس بن حبيب يفضله" . وقد أدى ذكره حماد دون تحلية إلى خطأ كثيرين إذ ظنوه حماد بن الزبرقان. انظر السيرافى ٣٤.

(٤) ٢٧.

الأخفش، عن يونس بن حبيب: أن حمادا حدثه أن ناسا من العرب يقولون فى النسب إلى شية: شِيَوى، والوجه فيه غير ذلك، وهؤلاء كأنهم قلبوا موضع الفاء فوضعوه فى موضع اللام.

أما أبو عمرو بن العلاء فكان يونس يرفعه مكانا عليا، ويثق فيه كل الثقة، ويقول[1]: "لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شىء واحد كان ينبغى لقول أبى عمرو بن العلاء فى العربية أن يؤخذ كله، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك". فلا عجب أن تكون أكثر رواية يونس عنه، فلا تحتاج إلى مثال للتدليل.

وكان فى عصر حماد وأبى عمرو أو فى عصر سابق عليهما قليلا: عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى. فعاصره يونس ورآه. ولكن ابن النديم[2] حكى عن يونس أنه قال: "لم أسمع من عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى، ولكنى سألته هل يعلم أحدا يقول: الصويق، مكان: السويق، فقال: "هى لغة عمرو بن تميم".

وأخال أن ابن النديم مخطئ فى إنكاره سماع يونس من عبد الله، وأنه لم يصب فى فهم الخبر. فحقيقته التى أوردها ابن سلام[3] قلت ليونس: "هل سمعت من ابن أبى إسحاق شيئا؟ "قال: "قلت له: هل يقول أحد: الصويق .." ولم يرد بذلك حصر سماعه فى هذا الابدال، بل أراد إثبات السماع.

والدليل على ذلك أن يونس كان يبجل عبد الله ويرى أنه أعظم علماء عهده

(١) ابن سلام ١٥. الأزهرى ٤٠ النزهة ١٥.
(٢) الفهرست ٤٢.
(٣) طبقات فحول الشعراء ١٥.

فى النحو، وأنفذهم ذكاء. قال محمد بن سلام[1]: "سمعت أبى يسأل يونس عن ابن أبى إسحاق وعلمه، فقال: "هو والنحو سواء". أى هو الغاية. قال: "فأين علمه من علم الناس اليوم؟ "قال: "لو كان فى الناس اليوم من لا يعلم إلا علمه يومئذ لضُحك به، ولو كان فيهم أحد له ذهنه ونفاذه، ونظر نظرهم، كان أعلم الناس". فغير معقول أن يرى فيه هذا الرأى وأن يعاصره أكثر من ربع قرن ثم لا يسمع منه.

والحق إن يونس سمع من ابن أبى اسحاق وروى عنه. قال أبو عبيدة عن يونس قال[2]: "مضيت إلى عبد ا لله بن أبى اسحاق الحضرمى فقلت له: "كيف تقرأ (فإذا برق البصر؟) " فقال : فإذا برق البصر، وفتح الراء. فقمت من عنده إلى أبى عمرو فقلت: "من أين بك؟" قلت : من عند عبد ا لله بن أبى إسحاق الحضرمى، سألته: كيف تقرأ (فإذا برق البصر) فقال: "فإذا برق البصر، بفتح الراء". فقال أبو عمرو: "أين يُراد به، يقال: برَقت السماء، وبرق النبت، وبرقت الأرض، فأما البصر فبرِق؛ كذا سمعنا".

وقال أبو عبيدة أيضا[3]: "زعم يونس عن ابن أبى إسحاق قال: أصل الكلام بناؤه على فعل، ثم يبنى آخره على عدد من له الفعل من المؤنث والمذكر، من الواحد والاثنين والجميع، كقولك: فعلت وفعلنا وفعلن وفعلا وفعلوا. ويزاد فى أوله ما ليس من بنائه، فيزيدون الألف كقولك: إعطيت، انما أصلها عطوت، ثم يقولون: معطى، فيزيدون الميم بدلا من الألف .. " فلا شك عندى فى أخذ يونس عن ابن أبى إسحاق سماعا فى بعض الأحيان، ورواية عن أبى عمرو فى بعضها

(١) المرجع السابق ١٤ السيرافى ٢٠ . النزهة ١١. الزبيدى ٢٦.

(٢) مجالس العلماء ٢٤٧.

(٣) مجاز القرآن ١: ٣٧٦ . وانظر القفطى ٢ : ٣٦٥.

الآخر، فيما أظن[1].

ولم يعلن أحد من الذين أرخوا ليونس ممن رجعت إليهم أنه أخذ عن محمد بن مسلم الزهرى. ولكننى عثرت على رواية له عنه[2]، تعرض فيها لتفسير آية ﴿وما علمناه الشعر﴾. وغير بعيد أن يأخذ يونس عن الزهرى، فقد مات هذا فى سنة ١٢٣هـ أو بعدها وعرف بالحديث والأخبار. وكان ليونس شغف بالأخبار العربية، ومشاركة فى الحديث، حتى ذكره ابن أبى حاتم فقال[3]: هو صاحب غريب.

وأضاف ثعلب شيخا آخر ليونس بن حبيب. قال فى أماليه[4]: "كان يونس يقول: "حدثنى الثقة عن العرب". فقيل له: "من الثقة؟" قال: "أبو زيد". قيل له: "فلم لا تسميه؟" قال: "هو حى بعد فأنا لا أسميه". لكن هذا القول غير صحيح أيضا. فالمعروف أن الذى كان يروى عن أبى زيد الأنصارى، ويلقبه الثقة، ويكنى بذلك عنه فى روايته هو سيبويه. أما يونس فلم يفعل ذلك، بل كان شيخا لأبى زيد.

وزاد بروكلمان[5] شيخا أخيرا هو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد الأخفش الأكبر. ولكننى لم أعثر على المصدر الذى استقى منه هذا القول، فأنا متوقف فى صحته.

---

(١) انظر روايتهما ما نشب من خلاف بين ابن أبى اسحاق والفرزدق فى الموشح للمرزبانى ١٠١، وطبقات ابن سلام ١٩.

(٢) السيرافى ٥٦.

(٣) طبقات ابن قاضى شهبة ٢٥٢.

(٤) المزهر ١ : ١٤٣، ١٥٢. الاقتراح ٢٨.

(٥) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠.

الأعراب

واللون الثانى من الدراسة، وهو الذى وصفته بالدراسة غير المنتظمة، أعنى به الدراسة التى حصلها عن غير شيخ أو عالم معروف. وأهم ما يندرج تحت هذا اللون من الدراسة فى ذلك الزمن الرحلة إلى البادية، والعيش مع الأعـراب الفصحـاء فـى مواطنهم، والحوار معهم، حتى قيل[1] إن الكسائى لما ارتحل إلى البصـرة وجلـس فـى حلقة الخليل بن أحمد ليأخذ عنه، استنكر عليه أحدهم هذا الفعل وقال لـه: "تركـت أسدا وتميما وعندهما الفصاحة وجئت إلى البصرة!" فسأل الخليل: "من أين علمـك هذا؟" فقال: "من بوادى الحجاز ونجد وتهامة".

وتدور عبارة واحدة عند كل من كتب عن يونس تـدل علـى هـذه الدراسـة، تقول[2]: "وقد سمع من العرب كما سمع من قبله".

ولم أجد نصا يصرح بـأن يونـس "سمـع مـن العـرب" فـى "بواديهـم" بالرحلـة إليهم، وإن كنت أرجح أنه قد فعل، بالرغم من وجود نص يـدل علـى أن "العـرب" أنفسهم كانوا يفـدون علـى يونـس فـى البصـرة. ولا يقـل هـذا النـص دورانـا عنـد الكاتبين عن يونس عن النص السابق؛ ويقول[3]: " وكـانت حلقتـه بـالبصرة ينتابهـا أهل العلم، وطلاب الأدب، وفصحاء الأعراب والبادية".

ولا يقف الأمر عند هذا النص، بل تتعدد الأخبار عن هذه الحلقة، ومن طرقها

---

(١) النزهة ٤٣.

(٢) السيرافى ٢٧، النزهة ٣١، ابن خلكان ٢ : ٤١٦، القفطى ٢ : ٣٦٥، ياقوت ٢٠ : ٦٤، البغية ٢ : ٣٦٥ . ابن قاضى شهبة ٢٥٢.

(٣) نفس المواضع.

من الأعراب للسؤال خاصة. قال أبو زيد[1]: "وقف علينا أعرابى فى حلقة يونس النحوى فقال: "الحمد لله كما هو أهله، وأعوذ با لله أن أذكّر به وأنساه، خرجنا من المدينة – مدينة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم – ثلاثين رجلا ممن أخرجته الحاجة، وحمل على المكروه، لا يمرِّضون مريضهم، ولا يدفنون ميتهم، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه، وا لله ياقوم لقد جعت حتى أكلت النوى المحرق، ولقد مشيت حتى انتعلت الدم، وحتى خرج من قدمى بخص ولحم كثير. أفلا رجل يرحم ابن سبيل، وفل طريق، ونضو سفر. فإنه لا قليل من الأجر، ولا غنى عن ثواب ا لله عز وجل، ولا عمل بعد الموت. وهو الذى يقول جل ثناؤه (من ذا الذى يقرض ا لله قرضا حسنا فيضاعفه له) مَلىّ وفى ماجد واجد جواد، لايستقرض من عوز، ولكنه يبلو الأخيار". قال: فبلغنى أنه لم يبرح حتى أخذ ستين دينارا".

ويذكرنا هذا الخبر بالمقامات، التى كانت تدور حول فن السؤال والكدية، ويعتمد بطلها على فصاحته فى إغراء الناس على التصدق عليه. ويجعلنا هذا نعيد النظر فى كون البذور الأولى لفن المقامات وُجدت عند أبى بكر بن دريد كما ظن الدكتور زكى مبارك[2]. ونبعد فى الزمن ونرى بذورا أقدم غرست فى حلقة يونس النحوى، وعلى أيدى جماعة من رواد حلقته الدائمين مثل أبى زيد الأنصارى وأبى عبيدة، أعجبوا بما رأوا من أعراب يسألون الناس فى الحلقة، ويفوهون بالمعجب من القول، فاتخذوا منهم أساسا بنوا عليه بناء فنيا جميلا[3].

وعندنا خبر يدل على أن هذه الحلقة كانت تضم أعرابا من قبائل شتى. فقد

---

(١) الكامل ١ : ٣٠٥.

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع ١ : ١٩٧ – ٢٠١.

(٣) انظر أيضا القفطى ٢ : ٣٦٦ . والمزهر ٢ : ٥٢٢.

رووا[1]: "قال رجل من الأزد فـي مجلـس يونـس النحـوى: وددت وا لله أن بنـى تميم جميعا فى جوفى على أن يضرب وسطى بالسيف. قال له شيخ فى ناحية المجلس حر مازى من بنى تميم: يا هذا، يكفيك من ذاك.. ".

ولدينا عدة أخبار أخرى تحكى لقاء تم بين يونس بن حبيب وبعض الأعـراب. ولكنها لا تبين موضـع هـذا اللقـاء غير أننـا نسـتنبط منهـا أنـه لم يكـن فـى حلقتـه. ونستطيع أن نستنبط من بعضها أنه كان فى البصرة، مثل ذلك الأعرابى الذى روى قصته أبو عبيدة. قيل[2]: "جاء عن عمر فى الحديـث أنـه قـال: ثلاثـة أسـفار كذبـن عليكم: كذب عليكم الحج، كذب عليكم الجهاد، كذب عليكـم العمـرة. قـال أبـو عبيدة: هكذا سمعتها من العرب يرفعون بها فى معنى الاغراء .. ما خـلا أعرابيـا مـن غنى – وكان فصيحا – فإنه نصب. وذلك أنه دخل مـنزلى فـرأى شـويهة مضـرورة فقال: مابـال هـذه علـى مـا أرى؟ فقلـت: إنـا لنعلفهـا. فقـال: كـذب عليـك الـبزر والنوى. فأتيت به يونس بن حبيب، فكتبها عنه، وكتب بعد ذلك منه علمـا كثـيرا. وقال: هذا القياس".

وتصور لنا الأخبار المروية عن يونس والأعراب العلاقـة بينهـم، وكيـف كـان يسلك الرجل شتى الطرق ليحصل علـى مـايريد منهـم. فكـان أحيانـا يقتصـر علـى الجلوس معهم والاستماع إليهم دون أن يتدخل فى شىء. قال ابن سـلام[3] : "سمـع يونس أعرابيا وقد قال له أعرابى آخر: كبرت وا لله. قال: أجل، لقد طالت حيـاتى،

(١) العقد الفريد ٤ : ٥١.

(٢) نوادر أبى مسحل الأعرابى ١١١– ٤.

(٣) أبو أحمد العسكرى ٧٤. وانظر ذيل الأمالى ١١٩، وأضداد أبى الطيب ٦٤٩، وجمهرة اللغة لابن دريد ٣: ١٦٣، ومجالس ثعلب ٨.

وتحنت قناتي، وابيضت سراتي".

وكان في بعض الأحيان يحاور الأعراب ويغريهم على أن ينحوه أخبارهم. قال ابن سلام[1] : "سمعت أعرابيا يخبر يونس قال: فارق أعرابي امرأته فقالت: إن كنت إذا أكلت لتحتف، وإذا شربت لتشتف، وإذا نمت لتلتف. قال: وا لله إن كنت لبولة منعة، طلعة قبعة".

وكان في أحيان أخرى يلجأ إلى السؤال المباشر. قال[2] : "سألت أعرابيا فقلت: أمسكين أنت أم فقير؟ فقال : لا بل مسكين".

وقد وصل الينا أسماء بعض الأعراب الذين اتصل بهم يونس وأخذ عنهم. وأهمهم رؤبة بن العجاج، الذي رأينا سابقا غضبته له حين هاجمه شبيل بن عزرة الضبعي. وقد لاحظ القدماء العلاقة الوثيقة بين الرجلين، فأعلن أبو الطيب عن يونس[3] : "كان شديد الاختصاص برؤبة بن العجاج".

وتنوعت صور أخذ يونس عن رؤبة. فكان أحيانا يكتفي بمجرد الاستماع إليه وتسجيل حديثه، كما فعل[4] حين روى أن رؤبة يقول: "ما جاءت حاجتُك" بالرفع.

وكان في أحيان أخرى يرصد ما يرويه من شعر غيره، والطريقة التي ينشده بها[5]، كما فعل حين أعلن أن رؤبة كان ينشد البيت التالي لأحد بني مذحج[6]

---

(١) مجالس ثعلب ٤٥١.

(٢) شرح ابن الأنبارى للمفضليات ٢٣٥. وانظر المنصف ٣ : ١٨.

(٣) مراتب النحويين ٢٢.

(٤) الكتاب لسيبويه ١ : ٢٥.

(٥) الكتاب ١ : ١٦١.

(٦) ينسب البيت إلى هنى بن أحمر الكنانى (انظر المرجع نفسه).

بالرفع:

عجب لتلك قضية، وإقامتي   فيكم على تلك القضية أعجب

وكان في أحيان ثالثة يوجه السؤال المباشر إلى رؤبة. روى أبو عبيدة[1] : "سأل يونس رؤبة عن قول ا لله تعالى (ما بعوضة) فرفعها، وبنو تميم يعملون آخر الفعلين والأداتين في الاسم. وأنشد رؤبة بيت النابغة مرفوعا:

قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا   إلى حمامتنا ونصفه فقد"

لم يكن يستهدف في كل أسئلته النحو كما سبق، بل كان أحيانا يريد اللغة، ويقصد معرفة معاني بعض الألفاظ. قال أبو عبيدة[2] : سمعت يونس بن حبيب يسأل رؤبة عن السانح والبارح فقال: السانح ما ولاك ميامنه، والبارح ما ولاك مشائمه".

وكان يونس أحيانا يعرض على رؤبة ما عنده فيعلق عليه. روى أبو عبيدة[3]: "وأنشده يونس بيت جرير:

إني– إذا الشاعر المغرور جربني –   جار لقبر على مران مرموس

فقال رؤبة: كذب وا لله، ما تميم بمران، انما هو بذات عرق، وقبر معد بمران".

وفي بعض الأحيان لم يكن يونس هو السائل أو المتحدث، بل كان رجلا غيره، فسجل هو ما وقع، إذ وقع في حلقته. قال ابن سلام[4]: "سمعت يونس يقول:

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٣٥.
(٢) شرح ديوان زهير ٥٩.
(٣) الموشح ١١٩.
(٤) الموشح ٢١٨.

كان رؤبة عندى، فقال له رجل: ما معنى قول العجاج:

وحبس الناس الأمور الحبسا

فقال له رؤبة: قلبه ويلك".

وبلغ من إلحاج يونس على رؤبة أن ضاق به ذرعا، فقال له ذات مرة[1]: "حتام تسألنى عن هذه الأباطيل وأزخرفها لك؟ أما ترى الشيب قد بلع فى لحيتك".

وقد ظهر أثر ذلك جليا فى مرويات يونس، فإنه نسب إليه فيضا زاخرا من المعلومات اللغوية والنحوية والأدبية. فلا عجب أن ادعى أنه "غلام رؤبة".

وبالرغم من ذلك لم يتقبل يونس كل شيء تفوه به رؤبة دون جدال، بل كان فى بعض الأحيان يؤاخذه ويؤاخذ أباه لاشتقاقات يخرجان فيها على القياس عنده، حتى ضاق به رؤبة وقال له[2] : علينا أن نقول وعليكم أن تعربوا.

وأخذ يونس أيضا من أبى مهدية من ثقات الأعراب وروى عنه. قال[3]: "ذهبنا إلى أبى مهدية فى عقب مطر نسأله عن حاله – وكان قد بنى بيتا فى ظاهر خندق البصرة وسماه جناحا – فقلنا له: كيف أنت يا أبا مهدية ؟ فقال:

عهدى بجناح إذا ما ارتزا وأذرت الريح ترابا نزا

أن سوف تمضيه وما ارمأزا كأنما لز بصخر لزا

أحسن بيت أهرا وبزا

---

(١) السيرافى ٢٨ . ابن سلام ٥٨١. البغية ٢ : ٣٦٥. المزهر ٢ : ٣٦٣. أبو أحمد العسكرى ١٥٠ . العقد الفريد ٦ : ٢٦٧. النزهة ٣٢. القفطى ٢ : ٣٦٦ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦.

(٢) سعيد الأفغانى: فى أصول النحو ٥٦. (الحواشى). وانظر مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٤: ٣٢٧.

(٣) ابن دريد : جمهرة اللغة ٢ : ٣٢٦.

يقال: بيت حسن الأهرة والظهرة: إذا كان حسن المتاع. قال: وما كان في البيت إلا حصير مخرق".

وحكى أبو الطيب خبرا يدل على أن يونس كان على صلة بأبي الدقيش، الذي وصفه أبو الطيب بأنه "كان أفصح الناس"، قال عن الأخفش[١]: "قال يونس: سألت أبا الدقيش: ما الدقيش؟ فقال: لا أدري، انما هي أسماء نسمعها فنتسمى بها".

ولكن هذا الخبر نفسه مروي عن الخليل، بل كان من رواته أبو الطيب[٢] عن الأخفش أيضا. غير أننا نلاحظ في رواية الخليل قوله: "دخلنا على أبي الدقيش نعوده" فتحدث بضمير الجماعة. فربما كان العائدون للرجل كثيرين، وكان فيهم الخليل ويونس.

وروى السيوطي خبرا يدل على أن يونس أخذ عمن يكنى بأبي المحلم، قال[٣]: "عن أبي المحلم قال: أنشدت يونس أبياتا من رجز فكتبها على ذراعه ثم قال لي: إنك لجياء بالخير". فإن كان قصد أبا المحلم الشيباني، الذي ألف كتب الأنواء، والخيل، وخلق الانسان، كان الخبر غير صحيح لأن ابن النديم[٤] يصرح أنه مات في سنة ٢٤٨، أي بعد وفاة تلاميذ يونس، فمحال أن يروي عنه.

ويبدو أن يونس أخذ عن أبي طفيلة الحرمازي ثم استضعفه بعد إقامته مدة في البصرة. قال أبو عبيدة[٥]: "قال أبو طفيلة: طه: يارجل. فأتكره يونس وقال: أظنه

---

(١) مراتب النحويين ٤٠ – ٤١. المزهر ٢ : ٣١٨.
(٢) مراتب النحويين ٤٠.
(٣) المزهر ٢ : ٣٠٤ .
(٤) الفهرست ٤٦.
(٥) مجاز القرآن ٢: ١٥ (الحواشي).

سمعها عندنا.. أين سمعت هذا؟ فقال" بالبادية. فقال له يونس: ألست أخبرتنا أنك قدمت البصرة فى حطمة فكنت مؤذن عمران القصير عشر سنين، أو قال: نحوها".

وذكر الجاحظ أن يونس أخذ عن رجل قد نعجب أن يأخذ عنه، لأنه غير عربى، قال[1]: "كان يونس بن حبيب يسمع منه (من أبى على الأسوارى) كلام العرب ويحتج به". ولكننا حين نطلع على إفاضة الجاحظ فى الثناء على الرجل ووصف فصاحته، يزول كثير من عجبنا. وبالرغم من ذلك أظن أن الجاحظ أراد أن يونس احتج بالأسوارى فيما نقله عن العرب توثيقا له، ولم يرد أنه احتج بلغته.

وكان يونس لا يقصر جهوده على أحد، بل كان يبحث عن المعرفة فى كل مظانها. فكان ممن بحث عنها عندهم الشعراء. فسعى إليهم واستمع إلى أشعارهم. وقد مر بنا فى حواره مع الكسائى تصريح منه أنه استمع إلى الفرزدق وهو ينشد شعره[2]. كذلك اتصل بذى الرمة وروى أشياء عنه. ذكر الأصمعى عن يونس[3] أنه سأل ذا الرمة عن كلام ليس على وجهه، فقال له: أتعرف اليتن؟ وهو الولد الذى تخرج رجلاه قبل رأسه عند ولادته. قال: نعم. قال: فكلامك هذا يتن.

نتبين من هذه الأخبار حرص يونس بن حبيب على علوم العربية، وإقباله عليها، لايشغله عنها شاغل، وبحثه عنها فى كل مجال، وعند كل أهل للبحث عنده. واجتمع هذا الجهد الدائب إلى ذاكرة واعية، جعلت أبا الخطاب زياد بن يحيى يقول[4] : "مثل يونس كمثل كوز ضيق الرأس لايدخله شيء إلا بعسر، فإذا دخله

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٦٩.

(٢) وانظر كتاب سيبويه ١ : ٢٥٣.

(٣) ابن دريد : جمهرة اللغة ٢ : ٣١.

(٤) القفطى ٢ : ٣٦٤.

لم يخرج منه" – يعنى لاينسى وكان الرجل الذى يتحلى بهـذه الصفـات ذا شـخصية قوية، وعقل حر، ورأى مجتهد. فكانت الثمرة عالما يبرز بين العلماء، ويحـوز الشـهرة بين المشهورين. فلا يخمله عَلم، ولا يطفئه نجم. فقرنت البصرة بينه وبين أشهر أبنائها من العلماء حينئذ: الخليل بن أحمد الفرهودى[1].

(١) آثرت هذه النسبة مجاملة ليونس الذى كان يحتمها، وإن كان الفراهيدى أشهر.

الفصل الثالث

باذل العلم

حلقته

ليس غريبا إذن أن يتنبه طلبة العلم إلى رجل بالصفات التى تبينت لنا سابقا، بل الغريب ألا يفعلوا. وليس غريبا أن يلتفوا حوله، فيؤلفوا واحدة من حلقات البصرة العلمية. وخاصة إذا وضعنا نصب أعيننا قول أبى زيد[1] : "ما رأيت أبذل لعلم من يونس".

ولست أستطيع أن أحدد مبدأ هذه الحلقة، ولكنى عثرت على خبر يدل على أنها كانت قائمة قبل وفاة الخليل. قال النضر بن شميل[2] : "جاء رجل من حلقة يونس فسأل الخليل عن شىء ..".

ولما انتقل الخليل إلى جوار ربه انفرط عقد حلقته، وانخرط كثير من أفرادها فى حلقة يونس أو ثبتوا فيها بعد أن كانوا يترددون بينها وبين حلقة الخليل. بل نفهم من بعض الأقوال أنه شغل المكان الشاغر فى حلقة الخليل[3] . فصارت حلقته فى وصف مروان بن أبى حفصة لها: "فلم أر حلقة أعظم من حلقة يونس".

ولعل من أكبر الأدلة على عظم هذه الحلقة واحتفالها بالناس قصد السائلين

(١) سمط اللآلى ١٩٥. القفطى ٢ : ٣٦٤.

(٢) الشريشى ٢ : ٢٤٧ . الشذرات ١ : ٢٧٦ . مرآة الجنان ١ : ٣٦٤.

(٣) نزهة الألباء ٤٣.

إياها، كما أبانت بعض الأخبار السابقة، وكما نرى فى قول أبى عبيدة[1]: "كنت فى حلقة يونس فجاء أعرابى. فوقف علينا فقال: "من ينصرنى نصره الله". فقال يونس: "أتتكم والله من قرب: من يرزقنى رزقه الله. قال الله عز وجل: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله﴾ أى يرزقه الله".

وقد طال عمر هذه الحلقة بطول عمر صاحبها، حتى قال أبو زيد الأنصارى[2]: "جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين، وجلس إليه قبلى خلف الأحمر عشرين سنة" . وربما مال بنا الظن إلى أن أبا زيد بالغ فى قوله أو تهاون فى ذكر السنين. ولكننا نجد الظاهرة تتكرر عند تلميذ آخر للرجل، هو أبو عبيدة، الذى قال[3]: "اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحى من حفظه". فهذا التكرار يقطع الشك أو يضعفه، وخاصة إذا قرناه بأن الرجل عاش قرابة قرن من الزمان.

وعرفنا سابقا أن هذه الحلقة التى امتازت بالعظم وطول العمر، توفر لها التنوع أيضا، فكانت مقصد فئات كثيرة من الناس كما وصفها الواصفون. ونستطيع أن نطمئن إلى هذا الوصف لأن الأخبار المتعددة تؤيده. وقد أوردت آنفا من الأخبار ما يكشف عن كونها مقصد الأعراب للالتقاء بهم والتحدث معهم أو لسؤال المترددين عليها.

وتردد على الحلقة أيضا الشعراء لانشاد ما استحدثوا من شعر، كما فعل

(١) القفطى : ٢ : ٣٦٦.

(٢) القفطى : ٢ : ٣٦٦. ياقوت ٢٠: ٦٥، ابن خلكان ٢ : ٤١٦. ابن العماد ١ : ٣٠١.

(٣) القفطى: ٢: ٣٦٦. ياقوت ٢٠: ٦٥، ابن خلكان ٢: ٤١٦. أبو الطيب ٢١، المزهر ٢: ٣٩٩. ابن العماد ١: ٣٠١.

مروان بن أبى حفصة فى مدحته للمهدى التى أراد أن يستفتى فيها يونس، وفعل بشار بن برد فى أبياته التى كانت السبب المباشر فى مقتله.

غير أن الهدف الأول الذى رمى إليه كل الذين قصدوا الحلقة هو "علم العربية"، الذى برز فيه يونس، وبرز فيه تلاميذه الملتفون حوله. وكان قصد الكسائى حلقة يونس ضربة حظ للدارسين، إذ أثار من النقاش ما لفت أنظار كثيرين فسجلوا بعضه، فأعطونا صورة مما كان يدور فى الحلقة، ومسالك الحوار فيها. وقد أوردت عدة أخبار فى هذا الشأن، غير أننى أحب أن أضع هنا هذه الصورة المفصلة. قال المازنى[1] : "إن مروان بن سعيد المهلبى سأل الكسائى بحضرة يونس: "أى شىء تشبه (أى) من الكلام؟ " فقال: "ما ومن" . فقال له: "فكيف تقول : لأضربن من فى الدار؟ " قال : "لأضربن من فى الدار". قال : "فكيف تقول: لأركبن ما تركب؟" قال: "لأركبن ما تركب". .قال : "فكيف تقول : ضربت من فى الدار؟ قال: "ضربت من فى الدار". قال: "فكيف تقول: ركبت ما ركبت؟" قال: "ركبت ما ركبت". قال : "فكيف تقول : لأضربن أيهم فى الدار". قال: "لأضربن أيهم فى الدار". قال: "فكيف تقول: ضربت أيهم فى الدار؟" قال: "لايجوز". قال: "لم؟" قال: "(أى) كذا خلقت".

وكان يونس فى بعض الأحيان هو الذى يثير تلاميذه، إذ يختار أحدهم، ويوجه إليه سؤالا، ليمهد السبيل أمام النقاش. روى العباس بن ميمون قال[2]: "سمعت الأصمعى – وذكر مروان بن أبى حفصة فقال: كان مولدا ولم يكن له علم

(١) السيرافى ٢٧. مجالس العلماء ٢٤٤. المزهر ٢: ٣٧٣، الخصائص ٣ : ٢٩٢.

(٢) الموشح ٢٥١.

باللغة، حضرته فى حلقة يونس، وسأل يونس عن قول زهير:

فبتنا عراة عند رأس جوادنا　　يزاولنا عن نفسه ونزاوله

فقال مروان: من العرواء من البرد. فقلت له: أخطأت، لو كانت من العرواء لقال: فبتنا معروين، انما عنى أنهم باتوا مشمرين كما يقال: تجرد فلان للأمر".

وكانت حلقة يونس – شأن الحلقات العلمية الحية – مسرحا لمعارك أدبية، إثر خلافات تنشب بين روادها. روى التوزى[1] : "صحف الفيض بن عبد الحميد فى حلقة يونس بن حبيب – وأنشد بيت ذى الأصبع العدوانى:

عذير الحى من عدوا　　ن كانوا حية الأرض

قال الفيض: جنة الأرض – فقال خلف الأحمر يهجوه:

لنا صاحب مولع بالخلاف　　كثير الخطاء قليل الصواب

أشد لجاجة من الخنفساء　　وأزهى–إذا ما مشى– من غراب

إذا ذكروا عنده عالما　　ربا حسدا أو رماه بعاب

وليس من العلم فى كفه　　إذا ذكر العلم غير التراب

أضاليل جمعها شوكر　　وأخرى مولدة لابن داب

فزاد إبان على أبياته – وذكر تصحيفا لأبى العتبى، وقد ذكر رجلا فقال: يكنى أبا الضيم، وانما هو آبى الضيم – فقال أبان:

فلو كان ما قد روى عنهما　　سماعا ولكنه من كتاب

(١) الأوراق ٣٥.

رأى أحرفا شبهت فى الهجاء سواء إذا عدها فى الحســـاب
فقال : أبى الضيم يكنى أبا وليس (أبى) إنما هو آبـــــى
وفى يوم صفين تصحيفـــة وأخرى له فى حديث الكـلاب
وتصحيف فيض بن عبد الحميـ ـد فى جنة الأرض أو فى الرباب
وعالى بذلك فى صوتـــه كقعقعة الرعد بين السحـــاب"

فكانت حلقة يونس بذلك مجمعا للمذاكرة، والاستشارة، والمناشدة، والمخابرة. قال الأصمعى[1] : "أول من نعى المنصور بالبصرة خلف الأحمر: كنا فى حلقة يونس، وجاء خلف فسلم وقال: "قد طرقت ببكرها أم طبق" فقال يونس: وما ذاك يا أبا محرز؟" فقال: "فنتجوها خبرا ضخم العنق" فقال: لم أدر بعد. فقال: "موت الامام فلقة من الفلق" فارتفعت الضجة بالاسترجاع.

تلاميذه

لما كان يونس بن حبيب رضى الخلق، باذلا للعلم، التف حوله كثير من التلاميذ، وعظمت حلقته كما رأينا. وكان الرجل محظوظا فيهم، فبرز منهم كثيرون فى علوم شتى.

فاشتهر منهم فى اللغة أبو عبيدة معمر بن المثنى، وعبد الملك بن قريب الأصمعى، وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى[2]، وأبو محمد يحيى بن المبارك

(١) الزمخشرى: ربيع الأبرار ٤ : ٦٤ ظ.

(٢) أبو الطيب ٣٩ - ٤٠ . المزهر ٢ : ٣٩٩. ياقوت ٢٠ : ٦٤.

اليزيدى[1] ومحمد بن المستنير قطرب. وطالت صلة أولهم بالرجل فكثرت روايته عنه كثرة واضحة. واختص به آخرهم دون غيره من اللغويين[2] .

واشتهر منهم فى النحو أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه، وأبو عمر صالح بن إسحاق الجرمى[3] . وقد اتفق القدماء[4] على أن سيبويه "روى عنه وأكثر" ومصداق قولهم الاحصاء الذى قام به الدكتور مهدى المخزومى[5] وأبان له أن سيبويه ذكر يونس "فى ثمانين ومئة موضع من كتابه وربما أورد ليونس فصلا كاملا كما جاء فى بحث التصغير". ولهذا السبب صرح صاحب المصون أن سيبويه أدرج أهم أقوال يونس فى كتابه، قال[6]: "ثم جمع سيبويه علم البرعاء من النحويين القدماء كلهم، فذكر فى كتابه مذهب الخليل، ومذهب يونس، ومذهب أبى عمرو، ومذهب ابن أبى إسحاق..".

ولحسن الحظ أن يونس اطلع على كتاب سيبويه وأقر كل ما حكاه عنه. قال المبرد[7] : قال يونس – وقد ذُكر عنده سيبويه "أظن هذا الغلام يكذب على الخليل". فقيل له: "قد روى عنك أشياء فانظر فيها". فنظر فقال: "صدق فى جميع ما قال، هو قولى".

---

(١) أبو الطيب ٩٨.

(٢) أبو الطيب ٦٧. البغية ٢ : ٨ . النزهة ٩٨.

(٣) السيرافى ٥٦. البغية ٢ : ٨ . النزهة ٩٨.

(٤) السيرافى ٢٧، ٣٧. البغية ٢ : ٢٢٩، ٣٦٥. القفطى ٢ : ٣٦٥. ابن قاضى شهبة ٢٥٢. ابن خلكان ٢ : ٤١٦.

(٥) الخليل بن أحمد ٢١٩.

(٦) ١١٩.

(٧) السيرافى ٣٨، أبو الطيب ٧٦ – ٧، البغية ٢ : ٢٢٩. النزهة ٣٩. الزبيدى ٤٩.

وبسبب هذا القول كان كتاب سيبويه المعتمد الأول لمن يريد أن يـدرس آراء يونس، وأن يثق بأن ما بين يديـه مـن أقـوال صـادرة حقـا عـن الرجـل. وعلـى هـذا الأساس أقمت دراستي.

وتتفق المراجع أيضا أن بعض أعلام الكوفيين قصدوا يونس بن حبيـب ونقلـوا عنه، أعني بذلك أبا الحسـن علـى بـن حمـزة الكسـائى، وأبـا زكريـا يحيـى بـن زيـاد الفراء[1] . أما الكسائى فقد وقع بصرنا عليه عدة مرات فى حلقته. وأما الفراء فقـد أخذ عن الرجل نحوا[2] ، وشـعرا[3] . ولاحـظ الأسـتاذ سـعيد الأفغـانى خلافـا غـير متوقع فى هذه المناسـبة، قـال[4] : "الطريـف تشـادّ البصريـين والكوفيـين فـى قـراءة الفـراء علـى يونـس بـن حبيـب البصـرى أسـتاذ سـيبويه تشـادا علـى غـير المنتظـر، فالكوفيون يزعمون أنه استكثر عنه، والبصريون يدفعون ذلك".

واشتهر من تلاميذه فى الأدب والأخبار أبو محرز خلف بن حيان الأحمر، وأبو عبد الله محمد بن سـلام الجمحى[5] ، إن لم أذكـر أبـا عبيـدة لمـروره فـى اللغويـين. ونظرة واحـدة فـى كتـاب طبقـات فحـول الشـعراء للجمحـى، وفـى الأخبـار التـى أوردتها فى دراستى هذه كافية لتبين دين الرجل لأستاذه.

وذكر ابن الجزرى[6] جماعة من تلاميذه فى قراءة القرآن، هم "ابنه حرمى بـن

---

(١) السيرافى ٢٧، ٤٤. البغية ٢ : ٣٣٣، ٣٦٥. أبو أحمد العسكرى ١٢٥. المزهر ٢ : ٤١٠. النزهة ٣١. القفطى ٢ : ٣٦٦. ياقوت ٢٠: ٦٤. ابن قاضى شهبة ٢٥٢. ابن خلكان ٢: ٤١٦.

(٢) مجالس ثعلب ٤٥٦.

(٣) السيرافى ٢٨.

(٤) فى أصول النحو ١٦٦.

(٥) المزهر ٢ : ٤٠٥.

(٦) غاية النهاية ٢: ٤٠٦.

يونس، وأبو عمر الجرمي، وإبراهيم بن الحسن، وعبد الله بن سليمان، وعيسى الأسدي، وموسى بن عبد الصمد الأيلي".

وذكر ابن أبي حاتم[1] رجلين رويا عنه الحديث، هما زياد بن عثمان بن زياد ابن أبي سفيان، وقريش بن أنس.

---

(1) ابن قاضي شهبة ٢٥٢.

الباب الثانى

المؤلف

حكى ابن الأنبارى[1] عن يونس بن حبيب أنه قال: " دخلت على أبى عمرو الشيبانى وبين يديه قمطر فيه أمناء من الكتب يسيرة، فقلت لـه: أيها الشيخ، هذا جميع علمك؟ فتبسم إلى وقال: هذا من صندوق كبير".

تدلنا هذه الحكاية – إن صحت – أن يونس كان لايتشدد فى أمر حفظ العلم في الصدور شأن العصر الذى عاش فيه وشهد انتقال العرب من الاكتفاء بالحفظ إلى الاعتماد على التدوين، وأنه كان يتسمح فى تقييد العلم فى مدونات. ولذلك لا نعجب أن ينسبوا إليه بعض الكتب.

ولكن ما عدد هذه الكتب التى دونها ابن حبيب، وخلفها لمن جاء بعده من أجيال؟

أعتقد أن من يعتمد على ماذكرته المراجع فيصرح أنه أصدر أربعة كتب، لايبعد عن الصواب. أما من يذكر أنها ستة، فهو ينظر إلى ظاهر الاحصاء ولايستبطنه.

فقد نسب القدماء إلى الرجل كتاب "معانى القرآن". ثم صرح ابن النديم وياقوت[2] (نقلا عنه فى الغالب) أنه له كتابان بهذا الاسم، واحد كبير، وآخر صغير.

وتكرر الأمر فى كتاب آخر له. إذ اكتفى ياقوت[3] بأن قال له كتاب النوادر. وأعلن ابن خلكان والقفطى[4] أن له كتاب النوادر الصغير، ولم يذكرا سببا

(١) النزهة ٦٣.
(٢) الفهرست ٣٤، ٤٢. معجم البلدان ٢٠ : ٦٧.
(٣) ٢٠ : ٦٧.
(٤) الوفيات ٢: ٤١٦. إنباه الرواة ٢ : ٣٦٧.

لهذا الوصف. أما ابن النديم[1] فكان صريحا أن الرجل كان له النوادر الكبير، والنوادر الصغير.

ولما كانت هذه الكتب لم تقع بأيدى العلماء بعد، كان لابد من الاعتماد على الظنون فيها. وظنى أن الكتاب الصغير والكبير – من المعانى أو النوادر – إنما هو كتاب واحد، بدأ الرجل فى إملائه فكان صغيرا ، ولكن كان يعود إليه بين الفينة والفينة ويضيف إليه ثم يعيد إملاءه فى حلقته. فهما إذن نسختان من كتاب واحد: أولاهما فى الزمن صغيرة، وأخيرتهما تحتوى على الأولى كلها ثم تضيف إليها مادة جديدة. وأمثل لذلك بكتابى الإبل اللذين طبعا للأصمعى، ويؤيدان هذا الظن كل التأييد.

---

(١) ٤٢.

الفصل الأول

الكتب المعروفة

كتاب النوادر

أهم كتاب من كتب يونس، لدينا معلومات عنه، ومقتبسات منه، هو "النوادر". فقد أخذه منه تلميذه محمد بن سلام، وأصدر نسخة بقيت إلى عصر متأخر. ثم فقدت غير مختصر اختاره منها بعض العلماء، فوقع في يد السيوطي، فاحتفظ به أو بجملة صالحة منه في مزهره. قال السيوطي[1]: "وفي النوادر ليونس، رواية محمد بن سلام الجمحي عنه – وهذا الكتاب لم أقف عليه إلا أني وقفت على منتقى منه بخط الشيخ تاج الدين بن مكتوم النحوي، وقال: إنه كتاب كثير الفائدة قليل الوجود..".

وأرجح أن النوادر هو الكتاب الذي أفاد منه الصغاني في كتابه "ماتفرد به بعض أئمةاللغة"، المحفوظة مخطوطته في دار الكتب المصرية تحت رقم ٤١٨ لغة[2]. واغترف منه مادة أفرد لها القسم الثاني من الكتاب. فان صح هذا ، كان لنا الحق أن نضيف إلى ما سبق على لفظ التوقة: "كذا وجدته محققا في نسخة قُرئت على ابن دريد، وعليها خطه؛ وعلى السيرافي، وعليها خطه".

ونستطيع أن نطمئن إلى هذا الترجيح حين نعرف أن أبا سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي كان مهتما بالنوادر حتى ألف نقدا عليها. وقد رد أبو محمد الحسن بن

(١) المزهر ٢ : ٢٨٩.

(٢) طبع كتاب الصغاني في بغداد في ١٩٨٣ باسم "الشوارد في اللغة، بتحقيق عدنان عبد الرحمن الدوري.

محمد النسابة التميمى التاهرتى على هذا النقد.

وعلى هذا الأساس أستطيع أن أضع ما بين يدى من أخبار فى ثلاثة أصناف: صنف صرح آخذوه بأنهم استعاروه من النوادر، وهو ما وضعه السيوطى فى مزهره؛ وصنف أرجح أنه مأخوذ من النوادر أيضا، وهو ما وضعه الصغانى فى كتابه؛ وصنف أظن أنه من النوادر لأن نهجه قريب من نهج الصنفين الأولين غير أن آخذيه لا ينسبونه إلى كتاب من كتب يونس.

ومن الخطأ أن نعتمد اعتمادا تاما على مابقى من مقتبسات فى استنباط منهج الكتاب، والموضوعات التى عنى بها، والظواهر التى غلبت عليه، وخاصة من النواحى السلبية. فإنها مثلا تخلو من الشعر، ومن نسبة أى قول إلى أحد من شيوخ يونس. ولكننا حين نذكر أن ما أورده السيوطى مأخوذ من منتقى، وما أورده الصغانى مختار، يميل بنا الرأى إلى أن ذلك ربما كان من المختصرين، وأن الكتاب الأصيل ربما كان مختلفا عن ذلك.

ومما يطمئننا إلى ذلك وجود كلمتين ينسبهما الرجل إلى أحد أساتذته. قيل فى المزهر[1]: "قال يونس فى نوادره: قال أبو عمرو بن العلاء: لا يكون الشواظ إلا من النار والنحاس معا".

وقيل[2]: "قال فى قوله تعالى: ﴿فرهن مقبوضة﴾ قال أبو عمرو بن العلاء: الرهن والرهان عربيتان، والرهن فى الرهن أكثر، والرهان فى الخيل أكثر".

ولكننا إذا كنا لا نستطيع أن نعتمد على هذه المقتبسات فى الظواهر السلبية،

(١) ١ : ٤٥٣.
(٢) ٢ : ٢٨٩.

فاننا نستطيع ذلك فى الايجابية، مع الاحتراس فى قدر انتشارها فى الكتاب.

وأول ما يتجلى للناظر فى المزهر عناية المؤلف باللهجات العربية، وخاصة اثنتين منها. فالفصل الذى أورده السيوطى هو فى الحقيقة قائمة طويلة بما بين لهجتى قريش وتميم من خلاف فى بعض الكلمات، وإليك ما أورده السيوطى دون تدخل منا، فى غير التنظيم على شكل قائمة. قال[1] : "قال يونس فى نوادره:

أهل الحجاز يقولون: خمس عشْرة – خفيفة لا يحركون الشين. وتميم تثقل وتكسر الشين، ومنهم من يفتحها.

أهل الحجاز يبطِش.	وتميم يبطُش.
أهل الحجاز أيهات.	وتميم هيهات.
أهل الحجاز مِرْية.	وتميم مُرْية.
أهل الحجاز الحصاد.	وتميم الحصاد
أهل الحجاز الحج.	وتميم الحِج.. "[2]

ونجد هذا الاهتمام باللهجات القبلية واضحا فى فصول الصغانى أيضا. فكثيرا ما أورد اللفظ واكتفى فى التعليق عليه بأنه لهجة، دون أن ينسبها إلى واحدة من القبائل، مثل قوله: "مُتى: لغة فى متى فى الاستفهام والشرط دون الظرف .. يجِن عليه الليل: لغة فى يجُن .. أَفْوق سهمه: لغة فى أفاقه وأَوْفقه ..".

وصرح فى أربع مرات بأصحاب هذه اللهجات، فكانت مرة لتميم، مثل قوله: "يسمِت فى الهداية: لغة تميم فى يسمُت" ؛وثانية لأحد بطون تميم، مثل قوله:

(١) المزهر ٢ : ٢٧٥ – ٦ .

(٢) يختلف ضبط هذه الألفاظ فى اللهجتين.

"قال رجل من بنى يربوع فى قولهم: لا يعرف هِرا من بِر، هو من قولهم: أبْررت شائى: أى أصدرتها، وهَرْرت بها: أى أوردتها"؛ وثالثة لغير تميم، مثل قوله: "أهل العالية يقولون: ما لقيته منذ اليوم، وأهل نجد يقولون: مذ اليوم؛ والرابعة لهذيل مثل قوله: "أجويت القدر، وهذيل تقول: أجييتها أى غلفتها".

وإذا اعتمدنا على قائمة المزهر نستطيع أن نصنف الظواهر اللغوية التى عنى بها يونس ورصدها فى كتابه على النحو التالى:

١- اختلاف القبائل فى ضبط الكلمات، وهو أكثر الأنواع ورودا فى القائمة، مثل قوله: "أهل الحجاز رَضوان وتميم رُضوان .. أهل الحجاز: على رغمه ، وتميم: على رغمه .. أهل الحجاز: مزرعة ومقبرة ومشرعة، وتميم: مزرعة ومقبرة ومشرعة".

ونجد هذه الظاهرة موجودة بمثل هذه الكثرة فى فصل الصغانى، حتى إننا نستطيع أن نقسمها بدورها إلى أنواع جزئية يندرج تحتها أمثلة عدة. فهناك الاختلاف فى ضبط الأفعال مثل قوله: "ينثِر ما فى الجراب: مثل ينثُر .. يخطِر ببالى: لغة فى يخطُر .. عَلُن الأمر لغة فى عَلَن وعَلِن". والاختلاف فى ضبط الأسماء، مثل قوله: "فلان من سِفِلة الناس: لغة فى السَّفِلة والسِّفْلة .. ومصدر ألا – أى قصَّر – أَلْو وأُلوّ، وحَذارك منه، وحذارِك منه: بمعنى حذار منه" . والاختلاف فى ضبط المركبات، مثل قوله: "لَعَمَرى – بالتحريك : لغة فى لعمْرى".

وكذا الأمر فى المقتبسات المهملة التى لا يبين آخذها عن أى واحد من كتب يونس أخذها، مثال ذلك[1]: "روى أبو عبيدة عن يونس أن من العرب من يقول:

---

(١) ابن الأنبارى: شرح القصائد السبع الطوال ٢٥٠.

هذا فِم، ورأيت فما، وأخرجه مـن فمـه، فيـلزم الفـاء الكسـر فـى الرفـع والنصـب والخفض"، وقول السيوطى[1] : "قال يونس: غرفت غَرْفة واحدة، وفى الإناء غُرْفة، ففرق بينهما، وكذلك قال فى الحَسوة والحُسوة".

٢- الإعلال والإبدال، وأورد السيوطى فى قائمته ثلاثة أمثلة لإعـلال كـل مـن الواو والياء. فقد تتبادل الواو والياء مكانيهما، مثل قولـه: "أهـل الحجـاز: قلنسـية، وتميم : قلنسوة .. أهل الحجاز : القِنْية، وتميم: القُنوة" . وتبدل الواء تاء، مثل قوله: "أهل الحجاز: تخذت ووخذت، وتميم اتخذت"، وتبدل اليـاء ألفـا، مثـل قولـه: "أهـل الحجاز: القير، وتميم: القار". وتقترب الهمزة مـن حـروف العلـة فـى الابـدال، وفـى القائمة مثال أبدلت فيه هاء، قيل: "تميم: هيهات، وأهل الحجاز: أيهات".

وأمثلة الإعلال والابدال كثيرة ومتنوعة فى فصول الصغانى. فلا تقتصر علـى حروف العلة والهمزة بل تتعداها إلى الميم ولكن أكـثر الأمثلـة كلمـات تحتـوى علـى الهمزة أوالواو، مثل قوله: "كان من الأمر ذَيْت وذيتِ، وذَيَّـة وذيـة، وذَيَّـاء وذيـاء: لغات فى ذيتَ وذيتُ" وقوله : "أجًّ : لغة فى وج " وقولـه "ذرا فـوه يـذرو، وذرى يذرِى، وذرا يذرا: أى سقط".

ويليهما فى الكـثرة تبـادل الميـم والنـون مكانيهمـا، مثـل قولـه : "الامتطـال: الانتطال.. هو شراب بأمقُع: مثل بأنقع". ثم تتساوى بقية الحـروف التـى يقـع فيهـا إبدال، مثل قوله: "أتّى: بمعنى حتى وعتى .. ادَّمل من مرضه : أى اندمل".

وتبين من النظـر فـى الأمثلـة السـابقة وغيرهـا أن بعـض أنـواع الإبـدال التـى ذكرها المؤلف غير قياسى، وبعضها الآخر قياسى كان يونـس فـى غنـى عـن ذكـره،

---

(١) المزهر ٢: ٢٩٩.

وخاصة ما اتصل بالهمزة وتخفيفها وإبدالها. مثال ذلك ما جاء فى قائمة السيوطى: "أهل الحجاز: جونة، بلا همز، وتميم: جؤنة، بالهمز" وما جاء فى فصل الصغانى: "الإعاء والإكاء والإقاء : لغات فى الوِعاء والوكاء والوقاء".

٣- الاختلاف فى صيغ الكلمات، سواء كانت أفعالا أو أسماء. وأمثلته فى قائمة السيوطى: "أهل الحجاز: سل ربك، وتميم: اسأل .. أهل الحجاز : هو الذى ينقد الدراهم، وتميم: ينتقد .. أهل الحجاز: الكراهة، وتميم : الكراهية". وأمثلته فى فصل الصغانى: "أَنْجمت السنُّ: مثل نَجمت. استنوى: ألقَى النوى، كَنَوى ونَوَّى وأنوى .. أُجنِب الرجل: مثل أَجْنب وجَنُب".

ويستحق الذكر الخاص من هذا الاختلاف ما وقع منه فى المصادر والجموع، إذ يبدو أن القبائل وقع بينها اختلاف كبير فى صيغهما لفت أنظار العلماء فأفردوا الكتب لكل من النوعين. أما يونس فلم يذكر أحد أنه دون كتابا خاصا بأيهما، ولكن المقتبسات الباقية تدل على أنه وجه إليهما عناية عظيمة، وخاصة إلى الجموع. وقد ذكرت آنفا ما قال عن الرهن، وأضيف إليه هنا بعض ما جاء فى فصل الصغانى، قال: "الوِهْدان: الوهاد .. جميع الجَذَع جُذاع وأجذاع وجُذْعان مثل جذاع وجذْعان.. اللُّؤْمان: اللئام". بل وصل الأمر إلى أن نسبت بعض الجموع إليه مثل آخاء[1] ، وإلى أن تنبه إلى القاعدة العامة، مثل قوله: "ماكان جمع فعيل من المضاعف يقال فيه فعل وفعل، مثل قليل وقلل وقلل".

وأمثل لعنايته بالمصادر ما جاء عند الصغانى: "مصدر شعرت بالشئ شِعْرة وشَعْرة وشعور، كالشِّعْر والشِّعْرى والمشعور والمشعورة .. قدمت البصرة قِدْمانا: أى قدوما".

---

(١) سر الصناعة ١ : ١٦٦.

٤- الحذف، بأن يسقط من الكلمة في إحدى اللغات حرف أو أكثر، سواء كانت الكلمتان: الناقصة والتامة تعودان إلى أصل واحد اتفق عليه النحاة، أو تعودان إلى أصلين مختلفين أو أصول اختلف فيها النحاة. مثال ذلك في قائمة السيوطي: "أهل الحجاز :ليلة ضَحْيانة، وتميم: ليلة إضْحيانة. أهل الحجاز: ما رأيته منذ يومين، ومنذ يومان، وتميم: مذ يومين ويومان، فيتفق أهل الحجاز وتميم على الإعراب، ويختلفون في مذ ومنذ: فيجعلها أهل الحجاز بالنون وتميم بلا نون". وأمثلته في مقتبسات الصغاني : "فلان مُضْلع لهذا الأمر : أي مضطلع ، وكذلك مُطَّلع.. السُّوذق والسُّوذَنيق: لغتان في السَّوْذق والسوذنيق. المَضْرح: المضرحيّ، كالقَطام للقطاميّ".

٥- التذكير والتأنيث. وأورد له السيوطي مثالا واحدا، قال: "أهل الحجاز: ليست له همة إلا الباطل، وتميم: ليس له همة إلا الباطل". وأورد الصغاني من أمثلته قوله: "ليلة مُقْمر: مثل مقمرة. يقال: كثرت مالُ فلان، يؤنثون المال كما أنثوا القوم، قال الله تعالى: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ .. امرأة حاصِنة: مثل حاصن". وأورد ابن سلام[1] : "قال يونس: يقولون: حية ذكر، ونعامة ذكر، وشاة ذكر، وبطة ذكر؛ ولم أسمعه منه".

٦- الصيغ الشاذة في القياس. فالصرفيون لايجيزون الاشتقاق من أسماء الأجناس، ويحكمون على ما جاء من ذلك بالشذوذ. ويبدو أن يونس عني بأمثال هذه الصيغ الشاذة، إذ أورد السيوطي له مثالا منها، قال[2] : "في نوادر يونس:

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٣٤.

(٢) المزهر : ٢ : ٢٧٥.

فاكه من الفاكهة، مثل لابن وتامر".

وهناك ظواهر لغوية أخرى تتجلى فى الفصل الذى اقتبسه الصغانى من يونس، والمقتبسات المهملة الأخرى عنه، مثل الصيغ الغريبة، والمثنيات، والمركبات ذوات المعنى الغريب، والألفاظ التى قد تتداخل معانيها، والألفاظ المماتة، واختلاف الإعراب. ولكننى لا أتحدث عنها هنا إذ لم أجد نصا صريحا يقطع بكونها من كتاب النوادر.

وأحب أن أشير – قبل أن أخلص من الحديث عن النوادر – إلى أن يونس تعرض فيه لبعض الألفاظ القرآنية، كما رأينا فى الرهن، وكما نرى فى قول السيوطى[1]: "قال يونس فى قوله تعالى: ﴿ويهيئ لكم من أمركم مرفقا﴾: الذى اختاره المِرْفق فى الأمر، والمرفق فى اليد". ويبدو أنه اتخذ من بعض الآيات شواهد على أقواله، كما رأينا فى حديثه عن التذكير والتأنيث.

وأشير إلى أن يونس من رواد المؤلفين فى النوادر، إذ لم يسبقه غير أستاذه أبى عمرو بن العلاء ثم ألف فيها من معاصريه القاسم بن معن الكوفى، وأبو مالك عمرو بن كركرة، والكسائى، وأبو شبل العقيلى، وأبو المضرحى. ولهذا السبب كانت نوادره أحد الينابيع التى اغترف منها من جاء بعده من اللغويين، أمثال ابن دريد وابن قتيبة وابن سيده[2] .

---

(١) المزهر : ٢ : ٢٨٩.

(٢) حسين نصار: المعجم العربى ١٢٣ – ١٤٥.

كتاب الأمثال

ذكر المؤرخون أن يونس بن حبيب ألف كتابا فى الأمثال، بهذا العنوان. وإذا كان الحظ الحسن قد منحنا مختصرا أو منتقى من كتاب النوادر، فإنـه لم يفعـل ذلـك فى هذا الكتاب. ولكنه لم يتخل عنا كل التخلى عنا.

فقد راجعت ما بين أيدينا من كتب الأمثال فلم أعثر على نص صريح مـأخوذ منه، حتـى الميدانى الـذى حـاول الاطـلاع علـى المؤلفـات السـابقة عليـه لم يصـرح بالرجوع إليه حين قال[1] : "فطالعت من كتب الأئمة الأعـلام مـا امتـد فـى تقصيـه نفس الأيام، مثل كتاب أبى عبيدة وأبى عبيد والأصمعى وأبى زيد وأبى عمرو وأبى فيد، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل به سلمة، حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا..". ولعل أقرب الأقوال إلى التصريح ما جـاء فـى فصـل المقـال[2]: "أورد يونس هذا المثل"، وإن كان هذا القول لا يقطع بأنه أورده فى كتاب الأمثال، فلا زال الاحتمال بأن ذلك كان منه فى بعض كتبه الأخرى قائما.

وبالرغم من ذلك عثرت على عدد من الأمثال والأقـوال المنسـوبة إلى يونـس فى مجمع الأمثال، وفصل المقال، وإصلاح المنطـق، وغيرهـا. وعلـى هـذه المقتبسـات أعتمد فى دراستى هذه، إذ أننى أرجح أن ما أورده الميدانى أخذه من "أمثال" يونس عن طريق أحد تلامذته الذين رجع إلى كتبهم. أضـف إلى ذلـك أن هـذه المقتبسـات تعطينا صورة تقريبية للأمثال التى عنى بها يونس، والنهج الذى اتبعه فى معاملتها.

(١) مجمع الأمثال ١ : ٧.

(٢) ٢٥٦.

ونستطيع أن نستنبط من هذه المقتبسات أن يونس عنى بعدة أنواع من الأمثال، ولم يقصر جهوده على واحد منها. وأكثر ما أخذه الميدانى منه أمثال اجتماعية تتناول العلاقات بين الأفراد، بل نستطيع أن نضيق المجال أكثر من ذلك ونصفها بالعائلية، إذ تعالج أمورا تكون بين الرجل وبنته، والمرأة وزوجها أو المتقدمين للزواج منها أو أبنائها أو قريباتها[1] . وأمثل لها بما جاء فى تفسير المثل (جف حجرك، وطاب نشرك، أكلت دهشا، وحطبت قمشا)، قال الميدانى[2]: "قال يونس ابن حبيب: كان من حديث هذين المثلين أن امرأة زارتها بنت أخيها وبنت أختها فأحسنت تزويرهما. فلما كان عند رجوعهما قالت لابنة أخيها: جف حجرك وطاب نشرك. فسرت الجارية بما قالت لها عمتها. وقالت لابنة أختها : أكلت دهشا وحطبت قمشا. فوجدت بذلك الصبية وشق عليها ما قالت لها خالتها. فانطلقت بنت الأخ إلى أمها مسرورة. فقالت لها أمها: ما قالت لك عمتك؟ فقالت: قالت لى خيرا ودعت لى. قالت: وكيف قالت لك ما قالت؟ قالت: قالت: جف حجرك وطاب نشرك. قالت : أى بنية، ما دعت لك بخير، ولكن دعت بأن لاتشمى ولدا أبدا فيبل حجرك ويغير نشرك. وانطلقت الأخرى إلى أمها. فقالت لها أمها: ما قالت لك خالتك؟ قالت: وما عسى أن تقول لى، دعت الله على! قالت: وكيف قالت لك ما قالت؟ قالت قالت: أكلت دهشا وحطبت قمشا. قالت: بل دعت الله لك يا بنية أن يكثر ولدك فينازعوك فى المال ويقمشوك حطبا".

ويتصل بهذه الأمثال العائلية أمثال أخرى قبلية، لاتقتصر على العلاقات فى داخل الأسرة الواحدة أو بين الأفراد بل تتسع فتتعلق بالعلاقة بين جماعة وأخرى. ولم

(١) مجمع الأمثال ١: ٥٧، ٦٩، ١٦٩، ١٨١، ٢٢٢، ٤٩١، ٤٩٧.

(٢) مجمع الأمثال ١: ١٨١.

أجد من هذا النـوع غير مثل واحد هو (أسائر اليوم وقد زال الظهر) ، قال الميداني[1]: "قال يونس: أصله أن قوما أُغير عليهم. فاستصرخوا بني عمهم فأبطئوا عنهم حتى أُسروا وذُهب بهم. ثم جاءوا يسألون عنهم فقال لهم المسئول هذا القول. يضرب في اليأس من الحاجة، يقول: أتطمع فيما بَعُد وقد تبين لك اليأس".

وقريب من هذه الأمثال الاجتماعية الأمثال التاريخية التي تسرد أخبارا كانت شائعة بين العرب يعدونها في تاريخهم القديم. ولم أعثر من هذا النوع إلا على واحد هو (على أهلها تجني براقش). قال الميداني[2]: "روى يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء قال: إن براقش امرأة كانت لبعض الملوك، فسافر الملك واستخلفها. وكان لهم موضع إذا فزعوا دخنوا فيه، فإذا أبصره الجند اجتمعوا. وأن جواريها عبثن ليلة فدخَّن فجاء الجند. فلما اجتمعوا قال لها نصحاؤها: إنك إن رددتهم ولم تستعمليهم في شيء، ودخنتهم مرة أخرى، لم يأتك منهم أحد. فأمرتهم فبنوا بناء دون دارها. فلما جاء الملك سأل عن البناء. فأخبروه بالقصة فقال: على أهلها تجني براقش. فصارت مثلا ".

وتلي الأمثال العادية [3] الأمثال الاجتماعية في الكثرة. وأعني بالأمثال العادية مالم يجروه على لسان أحد، وكانت عبارته المحكمة الموجزة ومضمونه الصادق سببا في شيوعه. وأمثل له بالمثل (أضئ لي أقدح لك)، قال الميداني[4]: "قال يونس بن حبيب: زعم بعض العرب أنه هزء، لأنه إذا قال: أضئ لي، كيف يقول:

---

(١) مجمع الأمثال ١: ٣٤٨، الزمخشري، المستقصى ١ : ١٥٣.

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٤٧٥.

(٣) مجمع الأمثال ١ : ١٠٨، ١٥١، ٤٣٤، ٢ : ١٣٠ فصل المقال ٩٨.

(٤) مجمع الأمثال ١ : ٤٣٤ . الزمخشري : المستقصى ١ : ٢١٣.

أقدح لك، لأن القادر على القدح لا يتعرض لاضاءة غيره، كأنه يقول: واسِـنى مـع استغنائى عن ذلك. هذا كلامه".

وأخيرا هناك الأمثال المأخوذة من الحيوان: من عاداته، أو القصص والخرافات التى التفت حوله وشاعت بينهم[1]. ومثالها (إنها الابل بسلامتها) الذى قال الميدانى فى شرحه: "قال يونس: زعمـوا أن الضبـع أخـذت فصيـلا رازمـا فـى دار قـوم قـد ارتحلوا وخلوه. فجعلت تخليه للكلأ وتأتيه فتغاره إياه، حتى إذا امتلأ بطنه وسمن أتتـه لتستافه، فركضها ركضة دقم فاها. فعند ذلك قالت الضبع: إنهـا الابـل بسـلامتها. يضرب لمن تزدريه فأخلف ظنك".

وتوجد بعض الأقوال الشائعة، التى وجدتها فى بعض المراجع[2]، غير أننـى لم أرها عند الميدانى، مثل قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: الحـرب خدعـة، وقولهم: لا دريت ولا أتليت. ولكننى لا أسـتطيع أن أقطـع بـل أن أرجـح أنهـا مـن كتاب الأمثال، ولذلك لم أتعرض لها هنا.

ونستطيع أن نستجلى من بعض الأمثلة التى أوردتها وغيرها مما لم أورد بعـض الخطوات التى سار عليها يونس فى معالجة الأمثال التى تحدث عنها. فنحن نـراه فـى بعض الأمثال صرح أنه لم يورد التفسير من عنـده، ونسـب ذلـك إلى صاحبـه. فعـزا تفسير واحد مـن أمثالـه إلى "بعـض العـرب"، وتفسـير واحـد آخـر إلى أسـتاذه أبـى عمرو. وأشار الميدانى إلى أنه فعل ذلك فى تفسـير المثـل القـائل (أعطنـى حظـى مـن

(١) مجمع الأمثال ١ : ٥٨ ، ٢ : ١٩١ . فصل المقال ٢٥٦.

(٢) ابن دريد: الجمهرة ٣ : ٤٥٩ – ٦٠ . ابن السكيت: إصلاح المنطق ١٢٩، ٣٤٧، ٣٥٥. ابن قتيبة: أدب الكاتب ٣٨.

شواية الرضف)، إذ قال فى نهاية ما أورده عن يونس[1]: "هذا ما حكاه يونس عن أبى عمرو".

ونراه يوجه القسط الأكبر من عنايته إلى أصل المثل، فلا يغفل عنه أبدا، يليه فى الاستئثار بالعناية مضربه، فهو يختم حديثه عن كل مثل بالظرف الذى يمكن أن يقال فيه. ولكنه أغفل ذلك فى مثل المرأة مع ابنتى أخيها وأختها.

وعنى فى أمثال بتفسير الألفاظ الغريبة التى فيها، وأهمل ذلك فى أمثال أخرى. وتكاد الأمثلة التى أوردتها تكون كلها من النوع الثانى، مما يدل على كثرتها. وأمثل للنوع الأول بالمثال (بعد الهياط والمياط)، قال الميدانى عنه[2]: "قال يونس بن حبيب: الهياط: الصياح. والمياط: الدفع، أى بعد شدة وأذى".

وصفوة القول إن يونس بن حبيب عنى بالفئات المختلفة من الأمثال، وخاصة الاجتماعية؛ وأنه رجع إلى من أخذ عنهم اللغة فى تفسيرها؛ وأنه اهتم بأصل المثل ومضربه، فكشف عنهما كشفا طيبا.

ونستطيع أن نقول إن حديث يونس عن الأمثال احتفظ بقيمته حتى بعد أن ألف تلاميذه كتبا فى الأمثال، وأنه كان أحد العمد التى أقام عليها هؤلاء التلاميذ كتبهم. فاغترف منه المؤلفون المتأخرون مباشرة أو عن طريق تلاميذه. ولست أعنى بهذا الميدانى وحده، بل أعنى معه الزمخشرى. حقا إنه لم يذكر يونس غير مرة فى صدد تفسير المثل (لو كان درءا لم تنل) قال[3]: "عن يونس: يقال: ما بدابتى درء.

(١) مجمع الأمثال ١ : ٤٩٧.

(٢) مجمع الأمثال ١ : ١٠٨ . وانظر ١ : ١٥١ ، ٢ : ١٣٠ . فصل المقال ٩٨.

(٣) المستقصى فى أمثال العرب ٢ : ٢٩٨.

ولم تئل: لم تنج. أى لو كان الداء الذى بك درءا – كما زعمت – لم تسلم منه، إنما كان شيئا آخر. يضرب لمن يعظم الأمر الذى يشتكيه ويزيد فى وصفه". ويختلف هذا القول عما عند الميدانى، الذى قال[1]: "قال يونس: لو كان الأمر كما قلت لم تنج ولكنه دون ما قلت. الدرء: الدفع، وكل ما يحتاج إلى دفعه يسمى درءا، ومنه درء الأعادى أى شرهم. والوأل: النجاة. يضرب لمن يتهم فى قومه". والاختلاف فى نص العبارة الأولى لا معناها ويبدو أن أحدهما تصرف فى عبارة يونس.

ولكن الزمخشرى لم يأخذ من يونس تفسير هذا المثل وحده، بل أخذ تفسير بعض الأمثال الأخرى غير أنه لم يصرح بذلك. وإنما يتبين هذا عند مقارنة كلامه بكلام يونس عند الميدانى. قال الزمخشرى مثلا فى المثال[2] (أسائر اليوم وقد زال الظهر): "وقيل: أصله أن قوما أغير عليهم فاستصرخوا بنى عمهم، فأبطئوا عليهم حتى أسروا وذُهب بهم، ثم جاءوا يسألون عنهم فقال المسئول ذلك" وقال فى المثال[3] (أضئ لى أقدح لك): "قيل : هو تهكم، إذا قال: أضئ لى، كيف يقول: أقدح لك". وقد مرت العبارتان بنا دون تغيير عن يونس.

كتاب معانى القرآن

يماثل هذا الكتاب سابقه فى عدم العثور على مقتبسات صرح أصحابها أنهم أخذوها منه. ولكنه يختلف عنه بعض الشئ. فقد رجحت فى الكتاب السابق أن

(١) مجمع الأمثال ٢ : ١٣٠.
(٢) المستقصى ١ : ١٥٣.
(٣) المستقصى ١ : ٢١٣.

بعض ما لدى من أقوال منقول عنه، بل كادت بعض القرائن تجزم بذلك. أما هذا الكتاب فلم أجد سبيلا إلى ذلك . حقا، عثرت على عدة أقوال ليونس تعالج جوانب مختلفة من الآيات القرآنية. ولكنها مجردة من كل قرينة تؤدى بنا إلى إثباتها فى كتاب معانى القرآن أو نفيها منه. وبالرغم من ذلك، لن أهمل هذه الأقوال، بل أقوم بدراستها هنا لأنها تلقى أضواء على الطريقة العامة لتناول يونس فى دراساته القرآنية.

وأبدأ بالأقوال المتعلقة بمعانى الآيات لقربها من موضوع الكتاب. نستطيع أن نتبين من بعض الأخبار التى بين يدى[1] أن يونس كان فى بعض الأحيان ينظر إلى جملة القرآن، ولايكتفى بالنظرة المحلية فى آية واحدة، فيدلى بالحكم الذى يعم الكلمة أنى جاءت. قال: "كل شئ فى القرآن (فأتبعه) أى طلبه، و (اتّبعه) يتلوه".

ونتبين من خبر آخر أنه اعتمد فى تفسيره للمفردات القرآنية على الشعر، حتى فى الأحوال التى كان الظن ألا يعتمد عليه فيها. قال الجرمى[2]: رأيت يونس النحوى – ومر بحلقة من حلاق المسجد – فقام إليه رجل فسأله عن قول الله جل ذكره: "وأنى لهم التناوش من مكان بعيد" فقال بيده: التناول. وأنشد:

وهى تنوش الحوض نوشا من علا   نوشا به تقطع أجواز الفلا"

فالمكان الذى سئل فيه، والهيئة التى سئل عليها، يجعلانه فى حل من الاقتصار على المعنى المجرد، ولكنه أضاف متطوعا الشاهد الشعرى، الذى نجده فى غير الخبر السابق أيضا[3] .

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ٤٦. وانظر المزهر ١ : ٤٥٣.

(٢) السيرافى : أخبار النحويين ٥٧، وانظر الفاخر للمفضل بن سلمة ١٦٤.

(٣) ذيل الأمالى ١٨.

وتكشف بعض الأخبار الأخرى أن يونس انساق وراء معارفه النحوية، ووجه عناية خاصة إلى ما اتصل بها من أمور قرآنية، مثل الأدوات.

أورد الزركشي[1] في معاني (من) أنها تكون "بمعنى الباء نحو "ينظرون من طرف خفي" حكاه البغوي عن يونس". وأورد ابن الأنباري[2] في تفسير قوله تعالى: "ويكأنه لا يفلح الكافرون" عن يعقوب بن السكيت: "أنشدني هذا البيت:

ويك إن من يكن له نشب يحـ ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

محمد بن سلام الجمحي عن يونس وقال: معناه ألم تر".

واعتمد يونس على معارفه النحوية في تفسيراته، كما نرى فيما روى محمد ابن سلام عنه حين قال[3]: "سمعت يونس النحوي يقول في قوله جل وعلا: "فاليوم ننجيك ببدنك" ننجيك: نجعلك على نجوة من الأرض، وهي المكان المرتفع. ببدنك: بدرعك. وأنشد لأوس بن حجر:

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

فمن بنجوته كمن بعقوته والمستكن كمن يمشي بقرواح"

بل اعتمد على هذه المعارف النحوية في قراءته أيضا، وخاصة عندما يدعمها الشعر الفصيح. قال ابن سلام[4]: "قلت ليونس: كيف تقرأ "وجئتك من سبأ بنبأ يقين"؟ فقال: قال الجعدي، وهو أفصح العرب:

(١) البرهان ٤ : ٤٢٠.
(٢) شرح القصائد السبع الطوال ٣٥٩.
(٣) ذيل الأمالي والنوادر ١٨.
(٤) طبقات فحول الشعراء ١٠٦. ابن دريد : جمهرة اللغة ٣ : ٢٩٢.

من سبأ الحاضرين مأرب إذ		يبنون من دون سيله العرما

وهو على قراءة أبى عمرو ويونس".

وطبيعى أن يلتقط ما فى الآيات من مسائل نحوية ويناقشها، كما روى عنه سيبويه[1]: "وأما قوله عز وجل: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ فإنه يجىء على البدل أو كأنه قال: انطلقوا، فقيل له: من؟ فقال: بنو فلان. فقوله: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ على هذا فيما زعم يونس".

وغير بعيد أن يكون تناول بعض القراءات بالتعليل. قال سيبويه[2]: "سمعنا بعض العرب يقول: الحمد لله ربَّ العالمين، فسألت عنها يونس، فزعم أنها عربية". ويؤيد ذلك المكانة السامية التى كان يشغلها يونس فى علم القراءة، قال الجاحظ[3]: "لم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار ثم عثمان بن أسعد، ثم يونس النحوى، ثم المعلى".

ويبدو أن يونس لم يكن من الملتزمين بالتفسير المأثور بل كان يفسر برأيه أحيانا. فنحن لم نجده يورد أى سند فى أقواله السابقة، ونجد بعضها ذا صبغة نحوية تدل على صدورها من عنده. ولعل الخبر التالى يؤيد هذا الاستنباط. قال أبو عبيدة عن يونس[4]: "كنت مع أبى عمرو بن العلاء عند بيت الله الحرام. فجاءنا مقاتل ابن سليمان فجعل يسأل أبا عمرو بن العلاء عن تفسير القرآن فأكثر. ثم قال له: ما معنى قوله تعالى ﴿مثل الجنة التى وعد المتقون﴾ فقال أبو عمرو: لا أدرى. فقلت

(١) الكتاب ١ : ٢٣٦. وانظر ١ : ١٧٣ ، ٢٤٩ ، ومجاز القرآن ٢ : ٢١.
(٢) الكتاب ١ : ٢٤٨.
(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٦٨.
(٤) مجالس العلماء ٦٥.

له: أضجرت الشيخ من كثرة ما تسأل، أراد صفة الجنة التي وعد المتقون. فقال مقاتل لأبي عمرو: هو كما قال ؟ فقال: إن كان سمع فخذ عنه. فقال مقاتل: ما أفتيتني، سمعت[1]. فقال: لو لم أسمع من الثقات ما أفتيتك، أو كلام مثل نحوه".

وبين يدى خبر آخر يدل على أن يونس روى بعض تفسيره عن بعض المشهورين من المفسرين. روى محمد بن إسحاق[2] عن يونس عن الزهرى في قول الله عز وجل: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغى له﴾ معناه ما الذى علمناه شعر وما ينبغى له أن يبلغ عنا شعرا.

كتاب اللغات

عنى العرب فى هذا الحقل العلمى بنوعين من التأليف: يقتصر الأول منهما على "اللغات فى القرآن"، ويمد بصره إلى مايحتوى عليه الكتاب الكريم من ألفاظ مأخوذة من لهجات القبائل المتفرقة فى شبه الجزيرة العربية، وقد يديم النظر فى بعض هذه الألفاظ محاولا أن يتعرف أصولها البعيدة، ولو كانت خارج شبه الجزيرة. ويتسع النوع الثانى فلا يقيد نفسه بالمجال القرآنى بل ينظر إلى اللهجات القبلية كلها، أو القبائل الفصيحة على أقل تقدير. وقلما يأبه هذا النوع بالتعمق إلى الأصول غير العربية.

فإذا كان كتاب يونس من النوع الأول لم يكن رائدا له. فقد سبقه إليه عبد الله بن عباس، وأكثر من الحديث فيه، حتى جمعت أقواله فى رسالة صغيرة، غالبت الأزمان، ووجدت من يطبعها فى عصرنا هذا. ولا نستطيع أن نتمسك بالعنوان

---

(١) يريد لم تفتنى بل رويت ما سمعت.

(٢) السيرافى ٥٦.

فنقطع بأن كتاب يونس من النوع الثانى، لأن بعض الكتاب كانوا يختصرون عناوين الكتب التى يذكرونها، فربما كان العنوان الذى بين أيدينا مختصرا.

وإذا كان الكتاب من النوع الثانى حاز يونس شرف السبق إلى التأليف فيه، فهو أول لغوى ينسب إليه كتاب من هذا النوع. ولعلنا نجد بعض الاظمئنان إلى أن الكتاب من هذا النوع حين نرى ما بين أيدينا من أقوال ليونس قلما يتعرض للغات فى القرآن، بينما كثير منها يعالج اللغات القبلية. وقد تجلى لنا ذلك فيما فعل فى كتاب النوادر. وتجلى لنا أنه لم يقتصر على ظاهرة أو اثنتين من الظواهر اللغوية فى هذا الصدد، بل تنبه إلى ظواهر كثيرة ورصدها. وأضفت إلى ذلك أن الرجل رصد ظواهر غير التى تحدثت عنها إلا أننى لم أجد من القرائن ما يجعلنى أضعها فى النوادر.

كل هذا يمنحنا صورة ما عن هذا الكتاب، الذى لم أعثر على اقتباس واحد صريح منه، ولا أستطيع أن أميل فى أى قول عثرت عليه إلى أنه منه، لأن الرجل كان يهوى الحديث عن اللغات القبلية، ويبث هذا الحديث فى كتبه المختلفة.

الفصل الثانى

الكتب غير المعروفة

كان حديثى فى الفصول السابقة عن الكتب التى نسبها القدماء إلى يونس بن حبيب. وقد حاولت – بالرغم من ضياعها – أن أؤلف لها صورة تجعلنا قادرين على التعرف عليها، وتمييز أهدافها واتجاهاتها وخصائصها، ومنحها مكانتها فى زمنها، ولكن بقيت كلمة يجب أن تقال عن مؤلفات الرجل.

الموازنة بين الشعراء

قال بروكلمان فى ترجمته ليونس بن حبيب[1]: "له موازنة بين قدامى الشعراء، ذكرها ياقوت فى الارشاد ٧ : ٣١٠".

وقد فهمت من هذا الكلام أن يونس ألف كتابا فى الموازنة بين الشعراء القدماء، وربما فعل ذلك قارئ بروكلمان. ولكننا حين نرجع إلى المصدر الذى استقى منه بروكلمان، أعنى معجم الأدباء لياقوت[2]، نتبين أن هذا الفهم غير صحيح، إذ لم يصرح ياقوت بأن يونس ألف مثل هذا النوع من الكتب، ولا أومأ إلى ذلك . وإنما أورد ياقوت عدة أخبار تحكى أسئلة قدمت إلى يونس عن رأيه فى بعض الشعراء الجاهليين والأمويين، والموازنة بينهم، وردوده عليها.

مثال ذلك ما رواه محمد بن سلام قال: "سألت يونس النحوى عن أشهر

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣١ (الترجمة العربية).

(٢) ٢٠ : ٦٥.

الناس، فقال: لا أومى إلى رجل بعينه، ولكنى أقول: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة الذبيانى إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب".

القياس فى النحو

كذلك قال بروكلمان[1]: "وقيل: إنه صنف كتاب القياس فى النحو". ولكنه لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه فى هذا القول، ولم أعثر أنا على من أشار إلى ذلك. وأعتقد أن التأليف فى القياس فى عصر يونس غريب، وغير متوقع. فقد تنبه الناس إلى القياس، وأكثروا من التحدث عنه فى الجيل التالى ليونس، أى جيل تلاميذه، بعد ما وقع الخلاف بين العلماء من البصرة والكوفة، وأخذ الناس يحسون أن كلا من الفريقين يختلف عن الآخر فى منحاه ونهجه. ووصل الأمر إلى أن شارك الشعراء فى الحديث عن الأقيسة النحوية[2].

---

(1) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠.

(2) نزهة الألباء ٥٤ -٥٥.

الباب الثالث

الدارس

ذكرت مرارا فى الصفحات السابقة أن يونس بن حبيب درس "علوم العربية" أو عنى بها، ولم أحاول أن أحدد واحدا معينا من العلوم. وقد استخدم القدماء أنفسهم عبارة "علم العربية"، فأطلقوها على اللغة والنحو. ولكن هذا التصور – فى اعتقادى – قاصر، لا يتسع لكل ما تحدث فيه علماء هذا العصر، من "علماء العربية".

فالعصر الذى عاش فيه يونس عصر مبكر، كان "علماء العربية" يعنون فيه بأشياء متعددة، ولكنها جميعا تستهدف إبراز صورة المجتمع العربى الخالص فى جاهليته وإسلامه: لغته، أدبه، حياته، تقاليده، قيمه. وهى جميعا تعتمد على مابقى بين يديها من آثار هذا المجتمع من أجل بلوغ هدفها، ولم تجد من هذه الآثار غير "الشعر". وهى جميعا تنظر إلى الشعر نظرة واحدة، وتعامله معاملة واحدة، وتسلك طريقة واحدة فى استخلاص ما يعنيها من حقائق منه.

فقد كان الشعر عندهم[1]: "ديوان العرب، به حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تعلمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله، وغريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديث صحابته والتابعين" ولذلك كان الشعر البرهان على صحة مايقال، ويدعم الأخبار التى يرد فيها[2].

فلا عجب أن تتداخل اهتمامات هؤلاء الدارسين "للمجتمع العربى" ولا تتضح اختصاصاتهم وضوحا كافيا، يجعلنا نعطى كلا منهم صفة واحدة. فإننا حين نحاول أن نصف ابن الكلبى وأبا عبيدة والمدائنى تستبد بنا الحيرة،إذ نجد فيما كتبوا

(١) السيوطى: المزهر ٢ : ٢٢٥ عن أحمد بن فارس. وانظر ابن سلام ٢٢.

(٢) عبيد بن شرية: أخباره ٣١٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، وغيرها.

وقد وقع القدماء أنفسهم فى مثل حيرتنا، ولم يتخلصوا منها إلا بابتكار وصف عام مبهم أطلقوه عليهم فهم عندهم "إخباريون"، يجمعون أخبار العرب المتنوعة الاتجاهات والطوابع، والتى لا تجعل من أحدهم مؤرخا خالصا، أو لغويا محضا، أو ناقدا بحتا أو ما إلى ذلك.

وإذا كان يونس بن حبيب لم يتسع الحقل الذى عمل فيه اتساعه عند الرجال الذين ذكرتهم، إلا أن حقله كان على شئ من الاتساع، وكان ما عنى بالاشراف عليه ورعايته فى هذا الحقل على شئ من التنوع.

وإذا كانت اهتمامات هؤلاء الرجال من التداخل بحيث لم يرض القدماء بالفصل بينها، ووضع الحدود المميزة لها، وأطلقوا عليها اسما جامعا، إلا أننى أوثر ألا أتبع القدماء فى ذلك، وأوثر محاولة الفصل بين الاتجاهات المختلفة التى سار فيها يونس، تيسيرا على القارئ، وتوضيحا للصورة، وتمهيدا لاعطاء كل جانب قدره من جوانب الرجل، بالرغم من إيمانى العميق بأن جميع هذه الجوانب لرجل واحد: فهى تترابط، بل تتواشج وتتداخل وتمتزج فتنتهى بأن تكون ذلك الرجل.

وأوثر أن أجمع هذه الجوانب فى فئتين: تلتصق أولاهما بالشعر: ترويه، وتفسره وتنقده؛ فصار الشعر بذلك مادتها وهدفها. وهى لذلك دراسة قد نسميها بالأدبية. أما الفئة الثانية فقد يليق بها اسم الدراسة اللغوية، إذ تستهدف اللغة والنحو. حقا إن هذه الدراسة تعتمد على الشعر أيضا، ولكنه مادتها حسب، أما هدفها فالكشف عن المسالك اللغوية التى سار فيها العرب فى تفاهمهم.

الفصل الأول

الدراسات الأدبية

الرواية

كان كل شيء في حياة يونس بن حبيب والمدينة التى عاش فيها، والعصر الذى كان أحد أبنائه، يدعوه إلى البحث عن الشعر العربى، وحفظه، وروايته.

فقد أخذ عن جماعة من الأعراب، كان بعضهم يقول الشعر مثل أبى مهدية، إن لم يكونوا كلهم من ناظميه. وأخذ عن جماعة من العلماء عرفوا برواية الشعر مثل أبى عمرو بن العلاء وأبى الخطاب الأخفش، وضمت حلقته جماعة كبيرة من الشعراء، ومن العلماء بالشعر مثل خلف الأحمر، وهو من أشهر رواة الشعر. واتصل بجماعة من الشعراء مستفيدا منهم، مثل رؤبة وذى الرمة والفرزدق. واتصل به جماعة من الشعراء مستفيدين منه مثل مروان بن أبى حفصة.

لا عجب إذن أن يستجيب يونس لهذه الدعوة، ويعنى برواية الشعر. فأخذ الشعر القديم عن شيوخه، قال سيبويه[1]: "قال عمرو بن كلثوم:

صددت الكأس عنا أم عمرو   وكان الكأس مجراها اليمينا

أى على ذات اليمين. حدثنا بذلك يونس عن أبى عمرو، وهو رأيه". وأخذه أيضا عمن التقى منهم من العرب. قال سيبويه[2]: "زعم يونس أن العرب تنشد هذا

---

(١) الكتاب ١ : ٢٠١.

(٢) الكتاب ١ : ١٣١ . وانظر ٧٧ ، ١٤٠ ، ٢٥٠.

البيت لهدبة بن خشرم:

فإن تك فى أموالنا لا نضق بها ذراعا، وإن صبر فنصبر للصبر"

وقال أيضا[1]: "زعم يونس أن ناسا من العرب يقولون:

أنصب للمنية تعتريهم رجالى أم هم درج السيول"

أما الشعر المعاصر له فأخذه من أفواه ناظميه. قال سيبويه[2]: "يقوى ذلك أن يونس وعيسى جميعا زعما أن رؤبة كان ينشد هذا البيت نصبا:

* فيها ازدهاف أيما ازدهاف*

وقال أيضا[3]: "زعم يونس أنه سمع الفرزدق ينشد:

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشارى

شغارة تقذ الفصيل برجلهـا فطارة لقوادم الأبكـــــــــار

وتدلنا الأبيات الباقيـة لدينـا مـن روايـة يونـس أنـه عنـى بعصـور الاستشـهاد اللغوى كلها، وبالفصحاء من الشعراء على اختلاف مراتبهم واتجاهاتهم. فقـد روى أبياتا من الشعر الجاهلى، بعضها من نظم كبار شعراء الجاهليـة كأصحـاب المعلقـات ومن فى مرتبتهم، مثل امرئ القيس وعمرو بن كلثوم والنابغة الذبيـانى والأعشـى وعبيد بن الأبرص. قال محمد بن سـلام الجمحـى[4]: "سـألت يونـس عـن قـول ا لله

(١) الكتاب ١ : ٢٠٧ . وانظر ٢٤ . والبيت لابراهيم بن هرمة. انظر ٢٠٦.

(٢) الكتاب ١ : ١٨٢. وانظر ١٦١.

(٣) الكتاب ١ : ٢٥٣.

(٤) المفضل بن سلمة: الفاخر ١٦٤.

تعالى ﴿إنما أنت من المسحرين﴾ فقال: من المعللين، وأنشد لامرئ القيس:

عصافير وذبان ودود ونسحر بالطعام وبالشراب"

وروى أيضا لجماعة من أقدم من نعرف من شعراء الجاهلية مثل المستوغر بن ربيعة، والصعاليك مثل عروة بن الورد، وسكان الحضر مثل عدى بن زيد العبادى، والنساء مثل الخرنق أخت طرفة بن العبد. قال سيبويه[1]: "قال عروة الصعاليك:

سقونى الخمر ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور

إنما شتمهم بشيء قد استقر عند المخاطبين. وقال النابغة:

لعمرى وما عمرى على بهين لقد نطقت بطلا على الأقارع

أقارع عوف لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغى من تجادع

وزعم يونس أنك - إن شئت - رفعت البيتين جميعا على الابتداء، تضمر فى نفسك شيئا لو أظهرته لم يكن ما بعده إلا رفعا".

ويبلغ الشعراء الاسلاميون الذين روى لهم أشعارا ضعف الجاهليين، ويزداد العدد إذا أضفنا اليهم المخضرمين. وقد روى للفحول منهم مثل لبيد والحطيئة والنابغة الجعدى وأبى ذؤيب الهذلى وجرير والأخطل وكثير والراعى وذى الرمة والعجاج وأبى النجم، فضلا عن رؤبة والفرزدق اللذين أولاهما من العناية مالم يوله لأحد، واعتمد على شعرهما اعتمادا لا يماثله اعتماده على شعر غيرهما. قال سيبويه: "أنشدنا يونس لجرير:

إياك أنت وعبد المسيح أن تقربا قبلة المسجد

---

(١) الكتاب ١ : ٢٥٢.

أنشدناه منصوبا وزعم أن العرب كذا تنشده"(١) .

وروى لغير الفحول من الإسلاميين أيضا، دون أن يقتصر على فئة معينة منهم. فقد روى لشعراء الغزل مثل جميل بثينة؛ وشعراء الهجاء مثل اللعين المنقرى، ويزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى، وجرير بن خرقاء العجلى؛ وشعراء المديح مثل نصيب وعبد الله بن همام السلولى؛ وشعراء العواطف الشخصية مثل هدبة ابن الخشرم وأبى الأسود الدؤلى؛ وغيرهم من الخاملين مثل الجارود بن أبى سبرة وابن رياح الشارزنجى وأبى داود الرؤاسى.

قال سيبويه(٢): "قال الهذلى:

فقلت: تحمل فوق طوقك إنها مطبعة من يأتها لا يضيرها

هكذا أنشدناه يونس".

وامتد نطاق من روى يونس شعرهم واستشهد بهم حتى شمل بعض مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية، مثل إبراهيم بن هرمة، الذى عده النحويون ساقة الشعراء وآخر من يستشهد بهم. أما العباسيون الخالصون الذين سموا بالمولدين فلم أجد يونس يروى لهم شيئا، بالرغم من اتصال بعضهم به كمروان بن أبى حفصة.

وإذا نظرنا فى قائمة الشعراء الذين روى لهم يونس تجلت لنا بعض الظواهر التى نستطيع أن نرصدها على النحو التالى:

كان القسط الأكبر من عناية الرجل موجها إلى الشعراء الاسلاميين، وخاصة من عاش منهم فى العهد الأموى. فعدد الجاهليين الخلص الذين روى لهم قليل جدا،

---

(١) الكتاب ١ : ١٤٠.

(٢) الكتاب ١ : ٤٣٨.

ولا يخرج عن نطاق الفحول غير هنى بن أحمر الكنانى والخرنق والمستوغر. والمخضرمون روى لأكابرهم ما عدا كعب بن زهير وحسان بن ثابت اللذين لم أجد شعرا لهما عنده. فإذا انتقلنا إلى العصر الأموى لم نكد نجد فحلا لم يرو له شيئا.

وبرز بين الأمويين رؤبة والفرزدق خاصة. أما رؤبة فقد كثر حديثى عنه ولا أحب أن أعود إلى ذلك. وأما الفرزدق فقد بلغ من اهتمام يونس به أن اضطر إلى الاهتمام بجماعة من الشعراء ما كان يأبه لهم لولاه. فقد كانوا على اتصال ما بالفرزدق، أو وقعت بينهم أحداث مشتركة، أرغمت الرجل على رواية بعض أشعارهم.

فلم أجد عنده لجرير بن خرقاء العجلى إلا ما رد به على الفرزدق. قال ابن سلام[1] : "روى عن يونس أن الفرزدق لما قال:

تصرم منى ود بكر بن وائل ... وما خلت دهرى ودهم يتصرم

قوارص تأتينى فيحتقرونها ... وقد يملأ القطر الإناء فيفعم

– وكان قد نزل عليهم حين هرب من ابن زياد – فقال جرير بن خرقاء يجيبه:

لقد بوأتك الدار بكر بن وائل ... وردت لك الأحشاء إذ أنت مجرم

ليالى تمنى أن تكون حمامة ... بمكة يغشاها الستار المحرم

فان تنأ عنا لا تضرنا وإن تعد ... تجدنا على العهد الذى كنت تعلم"

ولم أجد لنصيب غير الأبيات التى قالها للخليفة الأموى حين غضب من الفرزدق. قال المرتضى[2]: "أبو عبيدة عن يونس قال: دخل الفرزدق على سليمان

---

(١) المرتضى :الأمالى ١ : ٣٠٤.

(٢) الأمالى ١ : ٦٠.

ابن عبد الملك، وعنده نصيب الشاعر. فقال له سليمان: أنشدني! فأنشده.. (أبياتا في الفخر) فاسود وجه سليمان وغاظه فعله، وكان يظن أنه ينشده مديحا له. فلما رأى نصيب ذلك قال: ألا أنشدك؟ فأنشده:

أقول لركب قافلين لقيتهم | قفاذات أوشال ومولاك قارب:
قفوا خبروني عن سليمان إنني | لمعروفه من أهل ودأن طالب
فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله | ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فقال له سليمان: أنت أشهر أهل جلدتك. وفي بعض الأخبار أن الفرزدق قال ذلك في نصيب حين سأله عنه سليمان".

بل بلغ من فرط عنايته بالفرزدق أن عنى بمن حاول أن يكون على صلة به ولم يفلح. روى ابن سلام[1]: "قال اللعين:

سأحكم بين كلب بنى كليب | وبين القين قين بنى عقال
فإن الكلب مطعمه خبيث | وإن القين يعمل فى سفال
وقد حسر البعيث وأقعدته | لئيمات المناخر والسبال
ويترك جده الخطفى جرير | ويندب حاجبا وبنى عقال

قال ابن سلام: وسمعت يونس يقول: فلم يلتفتا لفته، وأراد أن يذكراه فيرفعه ذلك، فقال:

فما بقيا على تركتمانى | ولكن خفتما صرد النبال".

وإذا نظرنا فى الأشعار الباقية بين أيدينا من رواية يونس نجد أنها تمنحنا أسبابا

(١) الطبقات ٣٤٢.

متعددة حدت به إلى العناية بها. وأول هذه الأسباب الاستشهاد بها في ميداني النحو واللغة. فقد كان كثير من هذه الأشعار يضم ظواهر لغوية خاصة لفتت نظر ذلك الرجل المعنى يرصد هذه الظواهر، فعنى بها وتتبعها ومحصها. وعندما أحس سيبويه منه ذلك اتخذ منه أحد مراجعه في الشواهد. قال البغدادى[1]: "فاعتمد [سيبويه] على شيوخه، ونسب الانشاد إليهم، فيقول: أنشدنا، يعنى الخليل؛ ويقول: أنشدنا يونس.. ". ومثال ذلك ما رواه سيبويه قال[2]: "نظير هذا النصب من الشعر قول الخرنق:

لايبعدن قومى الذين هم — سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معـــــترك — والطيبون معاقد الأرز

فرفع الطيبين .. وزعم يونس أن من العرب من يقول:

النازلون بكل معترك — والطيبون

فهذا مثل والصابرين في قوله تعالى: "والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس".

وكان سبب عنايته ببعض الأشعار اتصالها ببعض الأخبار التى يعنى بها، مؤيدة لها، ومتممة لوقائعها، وموضحة لأحداثها. وإذ كان يونس شديد الاهتمام بالأخبار كان غير عجيب أن يعنى بهذه الأشعار وفق ما شاع عنه عند العرب من مناهج وتصورات. مثال ذلك ما رواه الجاحظ عن أبى عبيدة قال[3]: "حدثنى يونس قال:

(١) خزانة الأدب ١ : ٣٣٣.
(٢) الكتاب ١ : ٢٤٩.
(٣) الحيوان ٧ : ٨٣.

لما بنى فيل مولى زياد داره وحمامه بالسبابجة عمل طعاما لأصحاب زياد، ودعاهم إلى داره وأدخلهم حمامه. فلما خرجوا منه غداهم ثم ركب وغبر في وجوههم. فقال أبو الأسود الدئلي:

لعمر أبيك ما حمام كسرى على الثلثين من حمام فيل

وقال الجارود بن أبي سبرة:

وما إرقاصنا خلف الموالي كسُنَّتنا على عهد الرسول"

ونستطيع أن نتبين فئة ثالثة من الشعر كان الإعجاب هو الذي ساق يونس إلى حفظها وروايتها. ومثالها ما حكاه ابن خلكان(١): "قال يونس: تقول العرب: فرقة الأحباب سقم الألباب. وأنشد:

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناي حتى يؤذنا بذهـــاب

لم يبلغا المعشار من حقيهمـــا شرخ الشباب وفرقة الأحباب"

ويتجلى لنا في هذه الأشعار أيضا أن أكثرها أبيات مفردة، أو بيتان. ولا نعجب كثيرا لغلبة هذه الظاهرة على ما أورده سيبويه منها، لأنه فعل ذلك إذ عدها شواهد. ولم يعن النحويون في شواهدهم عادة إلا بالبيت الذي يمثل القاعدة النحوية التي يتحدثون عنها. ونستدل من هذا أن الاقتصار على البيت والاثنين ربما كان من يونس نفسه في أثناء علاجه النحو، وربما كان من سيبويه الذي اختار من رواية يونس ما فيه الشاهد النحوي، وإن كنت أميل إلى الظن الأول.

وأما مرويات يونس في غير كتاب سيبويه فلا تقتصر على الأبيات، بل

---

(١) ٢ : ٤١٧ . ابن العماد: شذرات الذهب ١ : ٣٠١ .

تطول وتصير مقطوعات، وخاصة فى طبقات فحول الشعراء لابن سلام. روى عن يونس مرة [1]: "أن يزيد بن ربيعة بن مفرغ كان رجلا من يحصب، وكان عديدا لبنى أسيد بن أبى العيص بن أمية، وكان منزله بالبصرة، وكان شريرا هجّاء للناس. فصحب عباد بن زياد – وعباد يومئذ على سجستان، عاملا لعبيد الله بن زياد، وعبيد الله يومئذ على البصرة لمعاوية – فهجا ابن مفرغ عبادا، فبلغه. وكان على ابن مفرغ دين، فاستعدى عليه. فباع عباد ماله فى دينه وقضى الغرماء. وكان فيما بيع عليه غلام يقال له برد، وجارية يقال لها أراكة، فقال:

أصرمت حبلك من أمامه	من بعد أيام برامه
تركى سعيدا ذا الندى	والبيت ترفعه الدعامه
وتبعت عبد بنى علا	ج ، تلك أشراط القيامه
جاءت به حبشية	سكاء تحسبها نعامه
من نسوة سود الوجو	ه ترى عليهن الدمامه
وشريت بردا، ليتنى	من بعد برد كنت هامه
يا هامة تدعو الصدى	بين المشقر واليمامه
العبد يقرع بالعصا	والحر تكفيه الملامه
والريح تبكى شجوها	والبرق يلمع فى الغمامه
ورمقتها فوجتها	كالضلع ليس له استقامه

وأمثال هذه المقطوعة، وما يقل عنها، وما يزيد، غير قليل فى الطبقات. ونشعر فى بعضها أن يونس ربما روى القصيدة كلها، فاقتصر ابن سلام على ما

---

(١) الطبقات ٥٥٤.

أورده منها. ولعل الخبر التالى يبين أن يونس روى بعض القصائد المفرطة فى الطول. قال السيوطى[1]: "زعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد. وقال: إنما هو كلام، وأجودهم كلاما أشعرهم، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول: لو كان مكانه غيره لكان أجود. وذكر أنه صنع أرجوزته:

* قد جبر الدين الاله فجبر*

فى نحو من مئتى بيت، وهى موقوفة مقيدة، ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها".

وكثرة الأخبار بين رؤبة والفرزدق ويونس، وتحدثه عنهما، واستشهاده بشعرهما، وحكايته أخبارهما، تجعلنى أميل إلى أنه كان يحفظ كثيرا من شعرهما إن لم أقل ديوانيهما. ولكننى لم أعثر فى أى من المراجع التى أفدت منها على أنه روى ديوانيهما، بل لم أعثر على من ذكر أنه روى ديوان شاعر جاهلى أو إسلامى. ويبدو لى أن يونس لم يكن ممن عنوا برواية الشعر لذاته، وإنما كان اهتمامه به من أجل ما يحتوى عليه من لغة ونحو وأخبار، فروى منه ما اتصل باهتماماته هذه، ولم يأبه لرواية ديوان كامل لشاعر مثل أستاذه أبى عمرو بن العلاء أو تلاميذه مثل الأصمعى وأبى عبيدة وخلف الأحمر. ولكن هذا لم يمنعه أن يكون له نظر فى الشعر يسَّر له نقد بعض الشعراء كزهير بن أبى سلمى والنابغة الجعدى وعبيد الله بن قيس الرقيات.

وقد أثار بعض ما رواه يونس عواصف من النقد، والخصومة بين الدارسين والأدباء. فقد روى محمد بن سلام[2] عن يونس الأبيات التالية التى نسبها إلى

---

(١) المزهر ٢ : ٤٨٤.

(٢) الطبقات ٢٩.

المستوغر بن ربيعة بن كعب التميمى، الذى عده من أقدم الشعراء العرب الموثوق من وجودهم:

ولقد سئمت من الحياة وطولها — وازددت من عدد السنين مئينا
مئة أتت من بعدها مئتان لى — وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقَا إلا كما قد فاتنا — يوم يكر وليلة تحدونا

وانتهز الدكتور طه حسين[١] هذه الفرصة السانحة وطعن ابن سلام طعنة قاصمة. فقد رأى فيه واحدا من أكبر العلماء الذين شعروا بما وقع فى الشعر من انتحال، وتتبع الشعر المنتحل، ونبه عليه. وبالرغم من ذلك، غفل عن بعض هذا الشعر وانخدع به، فوثق به وما كان مستحقا لهذه الثقة. والحق مع الدكتور طه، فواضح على الأبيات أنها من الشعر الشعبى، الذى كانت تزخر به القصص الذائعة بين العرب يسمرون بها فى لياليهم، وتدور حول المعمرين، كما يكشفها كتاب أبى حاتم السجستانى. ويؤيدنا فى هذه النظرة الأثر الذى تركته اللهجة القبلية فى الفعل (بقا) إذ لم يأت على اللغة الفصيحة (بقى).

كذلك خالف يونس بعض العلماء فى نسبة بعض ما رواه من شعر. فقد نسب الحائية المشهورة إلى عبيد بن الأبرص. قال ابن سلام[٢]: "أخبرنى يونس بن حبيب قال: قيل لذى الرمة: من أحسن الناس وصفا للمطر؟ فذكروا قول عبيد:

دان مسف فويق الأرض هيدبه — يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بمحفله — والمستكن كمن يمشى بقرواح

(١) فى الأدب الجاهلى ١٥٥. وانظر طه أحمد ابراهيم : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٨٧.

(٢) الطبقات ٧٦.

فجعلها يونس لعبيد، وعلى ذلك كان اجتماعنا فلما قدم المفضل صرفها إلى أوس ابن حجر".

ويتضح من قول ابن سلام أن يونس لم ينفرد بقوله بل كان تابعا فيه لجماعة أهل البصرة، فلما جاء المفضل الكوفى صرفهم عن رأيهم. ويبدو أن غلبة رأى المفضل كانت تامة بحيث أوقعت بعض العلماء فى الخطأ، إذ عُمم هذا الرأى وشمل به يونس نفسه. قيل فى ذيل الأمالى والنوادر(١): "محمد بن سلام قال: سمعت يونس النحوى يقول فى قوله جل وعلا: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾ ننجيك: نجعلك على نجوة من الأرض، وهى المكان المرتفع. ببدنك: بدرعك. وأنشد لأوس بن حجر:

دان مسف . . . .".

ونسب ميمية للنابغة الجعدى فخالفه تلميذه أبو عبيدة. قال ابن سلام(٢): "قلت ليونس: كيف تقرأ: "وجئتك من سبأ بنبأ يقين" فقال: قال الجعدى، وهو أفصح العرب:

من سبأ الحاضرين مـــــأرب إذ   يبنون من دون سيله العرمـــــا

– وهو على قراءة أبى عمرو ويونس – فجعل يونس القصيدة للجعدى. ثم أتينا خلفا الأحمر فسألناه فقال: للنابغة، وقد يقال لأمية". ويبدو من العبارة الأخيرة أن خلفا يرجح قول أستاذه يونس.

وفطن يونس إلى أن من أسباب الاختلاف فى نسبة بعض الأبيات ما تعوده الشعراء من التمثل فى قصائدهم ببعض أبيات السابقين عليهم دون أن يقصدوا إلى

---

(١) ١٨.

(٢) الطبقات ١٠٦.

سرقتها أو إخفاء أمرها على القارئ. قال ابن سلام[1]: "أخبرني خلف أنه سمع أهل البادية من بني سعد يروون بيت النابغة للزبرقان بن بدر. فمن رواه للنابغة قال:

تعدو الذئاب على من لا كلاب لـــه   وتتقي مربض المستنفر الحامـــــي

ومن رواه للزبرقان بن بدر قال:

إن الذئاب ترى من لا كلاب لـــــه   وتحتمي مربض المستنفر الحامـــي

... وسألت يونس عن البيت فقال: هو للنابغة، أظن الزبرقان استزاده في شعره كالمتمثل حين جاء موضعه لا مجتلبا له".

وإذا كانت بعض مرويات يونس أثارت خلافا كبيرا، فإن بعض أحكامه المتصلة بالرواية أثارت خلافات أخرى، بل ضلل بعضها العلماء آمادا طويلة. فقد كان أحد الذين أطلقوا القول أن لبيد بن ربيعة العامري سكت عن الشعر بعد الاسلام. قال ابن خلكان[2]: "قال يونس: لم يقل لبيد في الاسلام سوى بيت واحد، هو:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلـــــــي   حتى لبست من الاسلام ســربالا"

ويدور حول هذا القول خلاف قديم وحديث. أما الخلاف القديم فيتناول البيت الواحد الذي قاله لبيد في الاسلام، وهل هو ما رواه يونس أو غيره؛ والبيت الذي رواه يونس: هل هو للبيد حقا أو لغيره. فقد خالف بعض الرواة يونس[3]،

---

(١) الطبقات ٤٨.

(٢) الوفيات ٢ : ٤١٧.

(٣) انظر النقاش الطويل لقول يونس عند يحيى الجبوري في كتابيه: لبيد بن ربيعة العامري ٤٩ – ٥٧ وشعر المخضرمين ٢٣٣.

وقالوا إن البيت الذى قاله لبيد فى الإسلام هو:

ما عاتب المرء الكريم كنفســــــه   والمرء يصلحه الجليس الصالـــــح

وخالفه بعضهم الآخر فذكر أن البيت الأول ليس من نظم لبيد بـل مـن نظـم قردة بن نفاثة السلولى.

ويدور النقاش الحديث حول صحة قول يونس كله. فقـد وجـد المحدثـون فـى شعر لبيد ما شككهم فيه. وجدوا فيه ماقاله حين بلغ ٧٧ سنة:

قـامت تشـكى إلى النفـس مجهشـــة   وقـد حملتـك سـبعا بعـد سـبعين

فان تزادى ثلاثا تبلغى أمـــــــلا   وفى الثلاث وفاء للثمانــــــــين

وما قاله حين بلغ ٩٠ سنة:

كأنى وقد جاوزت تسعين حجـــــة   خلعت بها عن مكنبى ردائيـــــا

وما قاله حين بلغ ١١٠ سنة:

أليس فى مئة قد عاشها رجـــــــل   وفى تكامل عشر بعدها عمـــــر؟

على حين أنه قضى فى الجاهلية ٦٠ سنة من عمره فقط. ووجدوا فيه ما قالـه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوه أن يدعو الله لانزال الغيث، ومـا رثـى به أخاه أربد بعد إسلامه. ووجدوا فيه كثيرا من المعانى الاسلامية التـى استقاها مـن القرآن والحديث والجو الاسلامى، مثل قوله:

إن تقـــوى ربنـــا خـــير نفـــل   وبـــاذن الله ريثـــى وعجـــــل

أحمـــد الله فـــلا نـــد لـــــه   بيديـــه الخـــير مـــا شـــاء فعـــل

من هداه سبل الخير اهتـــــــدى   ناعم البال ومن شاء أضـــــــل

وقوله:

رأيت التقى والحمد خير تجـــــــارة   رباحا إذا ما المرء أصبح ثاقـــــــلا

وغيرهما، مما يؤكد خطأ قول يونس.

كذلك أطلق يونس القول فى ثلاثة من الخلفاء الراشدين. قال أبـو عبيـدة[1]: زعم يونس أن عليا وعمر وعثمان رضى الله عنهم لم يقولوا شعرا إلا أن يقولوا بيتا.

ويضعنا هذا القول أمام مشكلة عويصة اختلف فيها العلماء، فكان منهـم مـن أيد يونس تأييدا كاملا أو فى بعض قوله مثل حكمه على عثمـان. وكـان منهـم مـن اختلف معه مثل ابن رشيق الذى قال[2]: "فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهـم ما منهم إلا من قال الشعر"، وقال عن عمر[3]: "كـان مـن أنقـد أهـل زمانـه للشـعر وأنفذهـم فيـه معرفـة"، وقـال عـن علـى[4]: "كـان مجـوّدا".وروى لهـم عـدة قصـائد وأبيات. وبين أيدى العلماء الآن ديوان كامل منسوب إلى علـى. فـإذا كـان الشـك يحوط قدرا، يختلف فيه العلماء، من قصائده، فإنه لايرقى إليه جملة.

ووجدت ليونس بعض الأقوال التى تدل على أنه نظر فـى الروايـة والـرواة، ورصد بعض الظواهر التى ظهرت له.

أما الرواية فيبدو أنه كان مؤمنا بما قال أستاذه أبو عمرو بن العلاء عـن كـثرة الشعر العربى فى الجاهلية، وكثرة ما ضاع منه فى أثناء انتقاله إليهم. فقـد كـان هـو

---

(١) مجاز القرآن ٢ : ١٥٩ (الحواشى).

(٢) العمدة ٣٥. وانظر كتاب الاسلام والشعر ليحيى الجبورى ٧٩-١٢٨.

(٣) العمدة ٣٣.

(٤) العمدة ٣٤.

الذى نقل عن أبى عمرو قوله[1]: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير". وكان هذا القول واحدا من الأقوال التى نشرت بين الناس تصور سهولة نظم الشعر على العربى، حتى كاد كل عربى يكون شاعرا عندهم.

ونقل أبو عبيدة عن أستاذه يونس أن أبا عمرو اعترف بانتحال أحد أبيات الشعر. قال أبو عبيدة[2]: قال يونس: قال أبو عمرو بن العلاء: أنا الذى زدت بيت الأعشى فى شعره – يعنى:

وأنكرتنى وما كان الذى نكـــــرت　　　من الحوادث إلا الشيب والصلعـــا

فسار فى الناس وذهب فأتوب إلى الله منه. وقال: لم أزد فى أشعار العرب غيره".

ولكننى لا أقطع بصحة هذا القول. فقد روى تلميذ آخر ليونس ما يشكك فى صدوره عنه، ويجعلنا نميل إلى أن بعض تلاميذه وضع هذا القول على فمه إنقاصا من قدر أبى عمرو. ويزداد الشك بنا حين نذكر أن أبا عبيدة كان شعوبيا يتغنى "بمثالب العرب"، ويحاول أن ينتقص من كبارهم. يستطرد ابن الأنبارى بعد إيراده رواية أبى عبيدة فيقول: "وقال محمد بن سلام الجمحى: وحدثنى جوان قال: قال يونس: قال أبو عمرو: وأنا الذى قلت هذا البيت:

وأنكرتنى . .

قال: فلقيت يونس فسألته: من الذى يقول هذا البيت؟ فقال: الأعشى. فقلت: ما قول أبى عمرو فيه؟ فقال: قال أبو عمرو: وما بقى بعد الشيب والصلع؟

---

(١) ابن سلام: الطبقات ٢٣. ابن جنى: الخصائص ١ : ٣٨٦. ابن الأنبارى النزهة ١٧.

(٢) مجاز القرآن ١ : ٢٩٣. ابن الأنبارى: شرحه للمفضليات ٥٦٥.

كان ينبغي أن يتأنى لأن يقول الذى نكرت الشيب والصلع". فيونس ينسب البيت صراحة للأعشى، ولايعرف قولا لأبى عمرو فيه غير نقد معناه.

وتصدى يونس بن حبيب لاثنين من رواة الشعر بالنقد والتكذيب. أما أولهما فبزرج بن محمد النحوى الكوفى، الذى هاجمه هجوما مقنعا، إذ قال عنه[1]: "إن لم يكن بزرج أروى الناس فهو أكذب الناس" . ويبدو أن كثيرا من العلماء يوافقون يونس فى رأيه فى الرجل. قال المازنى[2]: "روى بزرج بن محمد العروضى شعرا لامرئ القيس. فقال له جناد: عمن رويت هذا؟ قال: عنى، وحسبك بى. فقال له جناد: من هذا أُتيت ياغافل".

وأما الثانى فالراوية الذى واجهته السهام من كل علماء البصرة، وهو حماد الراوية. ولم يتقنع يونس فى مهاجمته بل رماه فى قسوة وعنف. قال ابن سلام[3]: "سمعت يونس يقول: العجب لمن يأخذ عن حماد، كان يكذب ويلحن ويكسر" وزاد غير ابن سلام[4]: "ويصحف". وذكر أبو عبيدة أن يونس قال أيضا[5]: "قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة، وهو عليها، فقال: ما أطرفتنى شيئا. فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مديح أبى موسى. فقال: ويحك! يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به، وأنا أروى شعر الحطيئة؟! ولكن دعها تذهب فى الناس".

ولكن هذه الأقوال لقيت معارضة من كثيرين، كشف عنها الدكتور ناصر

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٧٢.

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٧٣.

(٣) الطبقات ٤١.

(٤) أبو الطيب: المراتب ٧٣. الجاحظ : رسائله ٢: ٢٦٦. السيوطى: المزهر ١ : ١٧٦.

(٥) ابن سلام: الطبقات ٤١. السيوطى: المزهر ١ : ١٧٦.

الدين الأسد[1] فى درسه لنظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى. فقد أبان أن القصيدة التى حكم عليها يونس بالانتحال رواها محمد بن حبيب عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى معا[2]، وأثبتها المدائنى البصرى، وذكر[3] "أن الحطيئة قال هذه القصيدة فى أبى موسى، وأنها صحيحة، قالها فيه وقد جمع جيشا للغزو". وكشف عما فى القول الأول من دغَل، على ضوء التناقض بينه وبين أقوال العلماء الآخرين. فقد قيل إن المفضل الضبى قال عنه[4]: "رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره.. فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد" وقيل إنه [5] كان "من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها". فأى هذه الأقوال يصدق على الرجل؟!

ونخلص من هذا بأن يونس بن حبيب لم يكن الرجل الذى يمكن أن يلقب بالراوية، أريد لم يكن الرجل الذى جعل همه البحث عن الشعر والسعى وراءه وحفظه وروايته لذاته دون هدف وراءه. فلم تتعد روايته الأبيات التى تشهد لظواهر لغوية ونحوية، والمقطوعات التى تتصل ببعض الأخبار التى عنى بها، والقصائد التى اتصل بمن نظمها. ولم يتجاوز جهده إلى رواية مجموعة من الأشعار أو ديوان لشاعر.

وقد أوقعه ذلك فى بعض المشاكل فى نسبة بعض الأبيات التى عزاها إلى

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى ٤٣٨ – ٤٥٠.

(٢) ديوان الحطيئة ٣٤.

(٣) الأغانى ٢ : ١٧٦.

(٤) الأغانى ٦ : ٨٩.

(٥) ياقوت: معجم الأدباء ١٠:٢٥٨.

أناس فلم يتابعه الناس وآثروا قول غيره كالمفضل. وأوقعه فى بعض الأخطاء التى شاعت وضللت العلماء أمدا طويلا. وأوقعه أيضا فى بعض الخطأ فى الحكم على الرواة الذين نقد روايتهم دون أن يكون متبحرا مثلهم فيها أو نظيرا لهم فى العناية بها.

ويؤدى بنا ذلك إلى عدم تصديق ياقوت[1] حين يطرى يونس فى حفظ الأشعار وروايتها فيعلن أنه كان: "حافظا لأشعارهم". فإن ما بين أيدينا من آثاره لايكفى لأن نقرنه بمن نعرفه من رواة الشعر.

ونخلص أيضا إلى أنه يجب الاحتراس فيما ينقل عن الرجل، إذ يبدو أن بعض تلاميذه نسبوا إليه مالم يقله لهوى فى نفوسهم الضعيفة الحاقدة.

الأخبار

يروى الرواة أن عمر بن الخطاب قال[2]: "الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه"، وأن معاوية بن أبى سفيان قال[3]: "الشعر ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها".

إذن كان الشعر – فى خلد العرب – فى القرن الأول السجل الذى يحفظ معارف العرب، وأقوالهم وأعمالهم؛ وأنه لم يقاربه سجل آخر فى هذا العمل؛ وأن من سعى أن يعرف شيئا عنهم فعليه بشعرهم.

وإذا كانت الأقوال التى عثرنا عليها من القرن الأول وتعرض هذه الصورة

---

(١) معجم الأدباء ٢٠: ٦٥.

(٢) ابن رشيق: العمدة ١ : ٢٧.

(٣) أخبار عبيد بن شرية ٣٥٢.

للشعر قليلة ومجملة، فإنها صارت في القرن الثالث كثيرة، ومفصلة، بحيث لا تدع ريبا لمرتاب. قال الجاحظ[1]: "فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال. وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك ديوانها". وقال ابن قتيبة[2] عن الشعر: ان الله جعله لعلوم العرب مستودعا، ولآدابها حافظا، ولأنسابها مقيدا، ولأخبارها ديوانا لايرثّ على الدهر ولا يبيد على مر الزمان.

كانت صورة الشعر على هذه الهيئة في القرن السابق على يونس، والقرن اللاحق عليه، صورة واحدة لا تزيدها الأيام إلا ثباتا وبروزا وجلاء تفاصيل. فلا عجب أن يروى يونس عن أستاذه القول الذى رواه وأوردته في الفصل السابق، وأكتفى منه هنا بجزئه الأخير: ولو جاءكم [ما قالت العرب] وافرا لجاءكم علم وشعر كثير.

تؤدى بنا هذه الصورة إلى النتيجة الطبيعية – والواقعة في حياة العرب – أن من اشتغل برواية الشعر العربى، فاهما لمعانيه، مدركا لمراميه، كان العارف بأخبار العرب أو ما اعتقد العرب أنه أخبارهم؛ وأن من سعى وراء معرفة أخبار العرب كان واجبا عليه البحث عن شعرهم أولا. فالبحث عن الشعر العربى والسعى وراء أخبار العرب هدفان لكن طريقهما واحد. فإذا ما سلكه عالم واع أدرك الهدفين معا. ولست أشك في وعى يونس، فكان لذلك حافظا للشعر، عارفا بالأخبار. بل لقد

(١) الحيوان ١ : ٧١.

(٢) تأويل مشكل القرآن ١٤.

أثر اجتماع هذين الأمرين في مزاجه وتذوقه للشعر، فدفعاه إلى الإعجاب بالشعر الذى يفى بهما. فوجد أمامه شعر الفرزدق لايماثله شعر فى هذا الجانب. فالتزمه، وتتبعه، وأحبه، رافعا شعاره[١]: "لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس".

وتدل الأخبار الباقية من رواية يونس أنه استقى بعضها من شيخه أبى عمرو؛ وأنه استقى منه أخبارا متنوعة الطابع. فقد كان منها ما تؤمن العرب أنه تاريخها القديم. روى عنه مثلا قوله [٢]: "العرب كلها ولد إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم"، وما حكاه عن براقش التى يضرب بها المثل[٣]. وكان منها القصص الشعبية الجارية على الألسنة تفسيرا لمثل[٤] .

كذلك استقى يونس بعض أخباره من رجل آخر غير مشهور، ولكنه كان على معرفة واسعة بالأحداث التى أخذها يونس عنه. قال أبو عبيدة فى بعض أخباره[٥]: "فحدثنى سلام بن أبى خيرة قال: سمعته أيضا من أبى الخنساء كسيب العنبرى يحدث يونس النحوى – وكان علامة أهل البصرة".

ويدل ما أخذه يونس عن أبى عمرو أنه كان له مشاركة فى العناية بهذين اللونين من الأخبار اللذين ذكرتهما. وفعلا نجد بين المرويات واحدا أو اثنين نستطيع أن نضعهما تحت النوع الأول غير أنه لم يصرح بمصدره. ولعله يروى الخبر التالى عن أبى عمرو أيضا، إذ انه متصل بالخبر الذى سقته آنفا. قال ابن

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١ : ٣٢١.

(٢) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١٠.

(٣) الميدانى: مجمع الأمثال ١: ٤٧٥.

(٤) نفس المرجع ١ : ٤٩٧.

(٥) شرح نقائض جرير والفرزدق ٧٣٤.

سلام[1]: "قال يونس بن حبيب: أول من تكلم بالعربية، ونسى لسان أبيه، إسماعيل ابن ابراهيم، صلوات الله عليهما". ويبدو أن الرجل كان قليل الاهتمام بمثل هذه الأخبار، فلا تكثر عنده بل لا تتعدد.

أما النوع الثانى – أعنى القصص الشعبية – فأكثر عددا، وتنوعا. ولعل السبب فى ذلك اتصال أكثرها بالأمثال التى ألف فيها يونس كتابا.

وأكثر الأخبار الباقية لدينا من القصص الشعبية ما دار حول العلاقات الفردية، وخاصة بين الرجال والنساء: أزواجا كانوا أو آباء وأبناء، أو أقارب. مثال ذلك ما قاله فى تفسير المثل القائل (جاورينا واخبرينا) قال [2]: "كان رجلان يتعشقان امرأة. وكان أحدهما جميلا وسيما، وكان الآخر دميما تقتحمه العين. فكان الجميل منهما يقول: "عاشرينا وانظرى إلينا". وكان الدميم يقول: "جاورينا واخبرينا". فكانت تدنى الجميل. فقالت : "لأختبرنهما". فقالت لكل واحد منهما أن ينحر جزورا. فأتتهما متنكرة. فبدأت بالجميل فوجدته عند القدر يلحس الدسم ويأكل الشحم، ويقول: "احتفظوا كل بيضاء ليه" يعنى الشحم. فاستطعمته فأمر لها بثيل الجزور فوُضع فى قصعتها. ثم أتت الدميم، فإذا هو يقسم لحم الجزور ويعطى كل من سأله. فسألته، فأمر لها بأطايب الجزور فوضع فى قصعتها. فرفعت الذى أعطاها كل واحد منهما على حدة. فلما أصبحا غدوا إليها، فوضعت بين يدى كل واحد منهما ما أعطاها. وأقصت الجميل وقربت الدميم ويقال: إنها تزوجته. يضرب فى القبيح المنظر الجميل المخبر".

وكان من القصص الشعبية التى اتسع انتشارها بين العرب وأقبلوا عليها

(١) طبقات فحول الشعراء ٩ . السيوطى : المزهر ١ : ١٧٤.

(٢) الميدانى : مجمع الأمثال ١ : ١٦٩.

إقبالا لا نظير له ما دار حول العشاق، والعذريين منهم خالصة. وكان ليونس أدنى مشاركة فيها، فقد نسبت إليه رواية إحدى هذه القصص. قال السراج[1]: "عن يونس قال: انصرفت من الحج فمررت بماوية، وكان لى فيها صديق من بنى عامر ابن صعصعة، فصرت إليه مسلما فأنزلنى، فبينما أنا عنده، ونحن قاعدان بفنائه، إذا نساء مستبشرات وهن يقلن: "تكلم تكلم " فقلت: "ماهذا ؟" فقالوا: "فتى منا كان يعشق ابنة عم له، فزُوجت وحملت إلى ناحية الحجاز. فإنه لعلى فراشه منذ حول ما تكلم ولا أكل إلا أن يؤتى بما يأكله ويشربه. فقلت: "أحب أن أراه". فقام وقمت معه. فمشينا غير بعيد وإذا بفتى مضطجع بفناء بيت من تلك البيوت لم يبق منه إلا خيال. فأكب عليه الشيخ يسأله وأمه واقفة. فقالت: " يامالك، هذا عمك أبو فلان يعودك". ففتح عينيه وأنشا يقول:

ليبكنى اليوم أهل الود والشفق   لم يبق من مهجتى إلا شفا رمق
اليوم آخر عهدى بالحياة فقد   أطلقت من ربقة الأحزان والقلق

ثم تنفس الصعداء فإذا هو ميت. فقام الشيخ وقمت فانصرفت إلى خبائه، فإذا جارية بضة تبكى وتتفجع. فقال الشيخ: "مايبكيك؟" فأنشأت تقول:

ألا أبكى لصب شف مهجته   طول السقام وأضنى جسمه الكمد
ياليت من خلف القلب الهيوم به   عندى فأشكو إليه بعض ما أجد
انشر تربك أسرى لى النسيم به   أم أنت حيث يناط السحر والكبد

ثم انثنت على كبدها وشهقت فإذا هى ميتة. قال يونس فقمت من عند الشيخ وأنا وقيذ".

(١) مصارع العشاق ١ : ٤٠.

والخبر يسير على النمط الشائع فى هذه القصص، ولا يخالفه أدنى خلاف.

وشارك يونس فى نوع آخر من القصص الشعبية كان له رواجه فى ذلك العصر، أعنى قصص الحيوان، أو القصص التى تتخذ من الحيوان أبطالا لها؛ وهى كثيرة وخاصة فى الأمثال. روى الميدانى[1] فى تفسير المثل القائل: (لا أحب تخديش وجه الصاحب): "قال يونس: تزعم العرب أن الثعلب رأى حجرا أبيض بين لصبين فأراد أن يغتال به الأسد. فأتاه ذات يوم فقال: يا أبا الحارث، الغنيمة الباردة: شحمة رأيتها بين لصبين، فكرهت أن أدنو منها، وأحببت أن تتولى ذلك أنت فهلم لأريكها: فانطلق به حتى قام به عليه. فقال: دونك يا أبا الحارث. فذهب الأسد ليدخل فضاق به المكان. فقال له الثعلب: أردس برأسك. أى أدفع برأسك. فأقبل الأسد يردس برأسه حتى نشب، فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر. ثم أقبل الثعلب يخوره، أى يخدش خورانه من قبل دبره. فقال الأسد: ما تصنع يا ثعالة. قال: أريد لأستنقذك. قال: فمن قبل الرأس إذن. فقال الثعلب: لا أحب تخديش وجه الصاحب. يضرب للرجل يريك من نفسه النصيحة ثم يغدر".

ولا نستطيع أن ندعى ليونس منهجا ينفرد به فى روايته لهذه القصص الشعبية الدائرة على الألسنة، ولا طريقة ذات خصائص متميزة عن غيره. فمثله فيها مثل كل من رواها، يقتصر على الرواية دون النقد، ولا يحاول عليها تعليقا بالتصديق أو التكذيب.

ومهما يكن من شيء فما بقى لدينا منها قليل، لايمكن الاعتماد عليه فى استخلاص شيء ذى بال عن يونس. ويبدو لى أن هذه القلة ناتجة عن عدم إعطاء

(١) مجمع الأمثال ٢ : ١٩١.

يونس هذه الأخبار ما أعطاه غيرها من اهتمام. فإننا إذا قارنا بين ماوصل إلينـا منهـا ومـا وصـل مـن أخبـار الشـعراء وجدنـا أخبـار الشـعراء أضعـاف النـوع الأول مـن القصص. ولنا الحق أن نقول إن أخبار الشعراء كانت الاهتمـام الأول ليونـس، وإن غيرها إنما كان أمرا عارضا. لا أستثنى من ذلك غير ما تضمنتـه الأمثال، إذ اضطـر إلى العناية بها فى كتابه.

وعندما ننظر فيما بقى بين أيدينا من أخبار الشعراء نفاجأ بظاهرة لافتة للنظر، وهى أن شيئا منها لا يعود إلى الوراء البعيد، ولا ينظر إلى الحاضر القريب. فلم أعثر على خبر رواه يونس عن شاعر عباسي. وقد يكون هذا شيئا طبيعيا، فإن النحويـين من أمثاله عدوا هـؤلاء الشـعراء مولديـن، ومنعـوا الاستشـهاد بـأقوالهم، ولم يعـترفوا بهم. والاستثناء الوحيد خبر عن قرشى لم يذكـر اسمـه، وليـس فيـه مـا يجعلـه جديـرا بالرواية. ولعل يونس فعل ذلك تملحا. قال ابن سـلام[1]: "حدثنـا يونـس قـال: كنـا على باب ابن عمير، فمرت بنا امرأة يدفع بعضها بعضا كأنهـا خائفـة. فمـا لبثنـا أن أقبل فتى من قريش عليـه قميـص قوهـى ورداء. فلمـا رآنـا ارتـدع، فقلنـا: هـا هنـا طلبتك. فتبعها وقال:

إذا سلكت قصد السبيل سلكتـــــه وإن هى عاجت عجت حيث تعوج".

ولم أعثر – للعجب – على واحد يرويه يونس من أخبار الجاهليين، وهـم أول من يستشهد بهم فى النحو.

وإنما أقدم من حكى أخباره من الشعراء: المخضرمون مثل الحطيئـة وعبـد الله ابن همام السلولى وأبى الأسود الدؤلى. قال ابـن سـلام: " أخـبرنى يونـس النحـوى

---

(١) السيرافى: أخبار النحويين البصريين ٢٨.

قال: خرج الحطيئة مع ابنته مليكة، وامرأته أمامة، على ذود له ثلاث، فنزل منزلا وسرح زوده. فلما قام للرواح فقد إحداهن، فقال[1]

أذئب القفر أم ذئب أنيس   أصاب البكر أم حدث الليالي
ونحن ثلاثة، وثلاث ذود،   لقد جار الزمان على عيالي"

ثم يستأثر الأمويون بأغلبية الأخبار. وأشعر أني أتجوز في هذا القول، وأوسع النطاق أكثر مما يجب. فما وجدت إلا خبرا واحدا عن أكثر الشعراء الذين تحدث عنهم، مثل كثير عزة، وأبي دؤاد الرؤاسي. قال ابن سلام: "حدثني يونس بن حبيب قال: وقعت حرب بين عقيل بن كعب ونمير بن عامر، فلم يقم لهم بنو عقيل، وجعلت نمير تسرف عليهم. فلما رأت ذلك بنو كعب وبنو كلاب وما تلقى عقيل من نمير، أجمعوا على قتل بني نمير. فارتحلت نمير ليلحقوا ببني سعد بن زيد مناة، فلحقتهم كلاب فردتهم، فتحملوا ما كان لهم من دم في بني كعب، ووهبوا لهم ما كان منهم. فقال أبو دؤاد الرؤاسي في ذلك[2]:

دفعنا، والأحبة من دفعنا   وكنا ملجأ لبني نمير
حوينا حجرنا لهم فحلوا   إلينا بعد تظعان وسير
وكان الرأس يوم قراص منا   ومنا الرأس يوم أبي عمير
فإن وهت العصا وأمنتموهم   فلا تستبدلوا أخيال طير
صديق كلما كنتم بشر   وأعداء إذا كنتم بخير"

وكانت أغلب الأخبار على هذا النمط من القصر، فلا تطول وتتعدد الأشعار

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٩٦.

(٢) طبقات فحول الشعراء ٥٩٠.

فى غير ما رواه عن الأخطل، وابن مفرغ الحميرى، ويزيد بن عبد الملك. فقد روى[1]: "أن حبابة جارية يزيد بن عبد الملك غنت يوما:

بين التراقي واللهاة حرارة ... ما تطمئن وما تسوغ فتبرد

فأهوى ليطير فقالت: يا أمير المؤمنين، إن لنا فيك حاجة. فمرضت وثقلت فقال: كيف أنت يا حبابة؟ فلم تجبه. فبكى وقال:

لئن لم تسل عنك النفس أو يذهل الهوى ... فباليأس يسلو القلب لا بالتجلد

وسمع جارية لها تتمثل:

كفى حزنا بالهائم الصب أن يرى ... منازل من يهوى معطلة قفرا

فكان يتمثل بهذا... ".

كل هذا القول ينطبق على الشعراء الأمويين غير واحد، ولذلك صرحت أنى أتجوز حين أعلن أن هؤلاء الشعراء استأثروا بأغلب أشعاره. فالحق أن الذى استأثر بها هو ذلك الشاعر الواحد وهو الشاعر الذى حفظ شعره أخبار الناس، أعنى الفرزدق.

فالأخبار الباقية تدل على أنه أولاه من العناية مالم يول لغيره من الشعراء، فروى عنه من الأخبار قدر ما روى عن بقية الشعراء الأمويين. وكشف عن جوانب متعددة من حياة الرجل، تتصل بالأغراض المختلفة من شعره، من غزل وفخر وهجاء ونقائض. قال ابن سلام[2]: "كان للفرزدق غلامان أحدهما اسمه وقاع، والآخر نقطة. ولوقاع يقول الفرزدق:

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ١٤٦٥ (أحداث سنة ١٠٥).

(٢) طبقات فحول الشعراء ٣٧. المرزباني : الموشح ١١٤.

تغلغل وقاع إليها فأصبحت تخوض خداريا من الليل أخضرا
لطيف، إذا ما انغل أدرك ما ابتغى إذا هو للضبى الغرير تقترا

وقال أيضا:

فأبغلهن وحي القول عني وأدخل رأسه تحت القرام
أسيد ذو خريطة نهارا من المتلقطي قرد القمام
فقلن له: نواعدك الثريا وذاك إليه مجتمع الزحام
ثلاث واثنتان فهن خمس وسادسة تميل إلى الشمام
فبتن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام"

والتفت بطبيعة الحال إلى ما كان بينه وبين جرير من تناقض، فروى خبرا يكشف عن خلق كل منهما، قال[١]: "كان الفرزدق يتضور ويجزع إذا أنشد لجرير، وكان جرير أصبرهما". وروى خبرا آخر يبين حال الناس بينهما، قال[٢]: "ما شهدت مشهدا قط ذكر فيه جرير والفرزدق فأجمع أهل ذلك المجلس على أحدهما".

وروى بعض الطرائف التى وقعت بين الفرزدق وبعض الشعراء مثل الحوار الذى دار بينه وبين الأحوص الأنصارى[٣]، وما كان بينه وبين نصيب فى مجلس سليمان بن عبد الملك وحكيته فى الفصل السابق، كما ذكرت آنفا أخبار الشعراء الذين تعرض لهم يونس لأنهم تعرضوا للفرزدق مثل اللعين المنقرى وجرير بن خرقاء العجلى.

---

(١) ابن سلام ٣١٧.
(٢) ابن سلام ٢٥١. الأغانى ٨ : ٥.
(٣) ابن سلام ٣١٣.

ويهجس بخاطرى ظن أن يونس تحدث عن أبى النجم، إذ كـان خبره لـه اتصال ما بأخبار الفرزدق. قال[1]: "اجتمع الشعراء عند سليمان بن عبـد الله فأمرهم أن يقول كل رجل منهم قصيدة يذكر فيها مآثر قومه ولا يكـذب. ثـم جعل لمن برز منهم جارية مولدة. فأنشدوا، وأنشد أبو النجـم حتـى أتـى علـى قوله:

عُـدُّوا كـم ربَـع الجـيوش لصلـــبه عشرون، وهو يعدُّ فى الأحيـــاء

قال: أشهد - إن كنت صادقا - أنك لصاحب الجارية. قال أبو النجـم: سـل الملأ عن ذلك يا أمير المؤمنين. قال الفرزدق: أما أنا فأعرف منهـم سـتة عشـر، ومـن ولد ولده أربعة، كلهم قـد ربـع. فقـال سـليمان: ولـد ولـده هـم ولـده، ادفـع إليـه الجارية".

وطبيعى بعد أن قال عن الفرزدق ما قال، وحكى عنه ما حكـى، أن يعنـى بمـا أشار إليه فى شعره من أخبار. ولما كنـا نعلـم أن النقـائض خاصـة مليئـة بالإشـارات التاريخية التى تشيد بمفاخر قبيلة الشاعر ومآثرها، وتعيب قبيلة خصمها بما كان فيهـا من مثالب أو ما قاسته فى حروبها من هزائم؛ كـان غـير غريـب علينـا أن نعتقـد أن المجال الذى عنى يونس بأخباره فسيح، لا يغفل جاهلية ولا إسلاما. ولكن الحق أننا لا نملك دليلا على شىء من هذا. فكل ما وجدته منسوبا إليه أخبـار تتعلق بمـا أراد أن يضطلع به عبيد الله بن زياد فى البصرة بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاويـة، وعـدم قيام خليفة يبايعه الناس، واضطراب الأمر فى الأقطـار الاسـلامية. وكـان ذلـك منـه بمناسبة حديثه عن قول الفرزدق خاصا بهذه الأحداث:

---

(1) ابن سلام ٥٧٨.

ومـن الـذى أعطـى يديـه رهينـة	لغارى معد يوم ضرب الجماجم
كفى كـل أم مـا تخـاف علـى ابنهـا	وهـن قيـام رافعـات المعـاصم
عشيـة سـال المربـدان كلاهمـا	عجاجة موت بالسيوف الصـوارم

قال أبو عبيدة[1] "مبدأ حديثه أن يونس بن حبيب النحوى حدثنى قال: لما قتل عبيد ا لله بن زياد الحسين بن على رضى ا لله عنهما وبنى أبيه بعث برؤوسهم إلى يزيد. فسر بقتلهم أولا وحسنت بذلك منزلة عبيد ا لله عنده. قال فلم يلبث إلا قليلا حتى ندم على قتل الحسين رضى ا لله عنه فكان يقول: وما كان على لو احتملت للحسين الأذى، فأنزلته معى فى دارى، وحكمته فيما يريد، وإن كان فى ذلك وكف ووهن فى سلطانى، حفظا لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ورعاية لحقه وقرابته. لعن ا لله ابن مرجانة، فإنه أخرجه واضطره، وقد كان سأله أن يخلى سبيله ويرجع من حيث أقبل أو يأتينى ويضع يده فى يدى أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه ا لله تعالى، فأبى ذلك ورده عليه وقتله، فبغضنى بقتله إلى المسلمين وزرع فى قلوبهم العداوة، فأبغضنى له البر والفاجر بما استعظم الناس من قتلى حسينا. مالى ولابن مرجانة، لعنه ا لله وغضب عليه! ثم إن عبيد ا لله بعث مولى له يقال له أيوب بن حمران إلى الشام ليأتيه بخبر يزيد. قال: فركب عبيد ا لله ذات يوم حتى إذا كان فى رحبة القصابين إذا هو بأيوب بن حمران قد قدم، فلحقه فأسرَّ إليه موت يزيد بن معاوية. فرجع عبيد ا لله من مسيره ذلك. فأتى منزله وأمر عبد ا لله بن حصن – أحد بنى ثعلبة بن يربوع – فنادى: الصلاة جامعة ..".

نخلص من هذا بأن يونس بن حبيب عنى بقسمين متميزين من الأخبار. يتألف

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق ٧٢١. وانظر ٧٢٤، ٧٢٩، ٧٣٤.

القسم الأول من القصص الشعبية التى رددتها الألسنة فى الجاهليــة والاســلام على اختلاف ألوانها، من قصص العلاقات بين الأفراد، والعلاقات بين القبــائل، وقصـص العشاق العذريين، وقصـص الحيـوان المتخيلـة. وكـان الـذى دعـاه إلى العنايـة بهـذه الألوان من القصص الشعبية أو أغلبها، كتاب الأمثال الذى ألفه، لأن الأمثـال تقـوم على هذا القسم من القصص، ولم يختلف نهج يونـس عـن نهـج نظرائـه الذيـن عنـوا بهذا القسم وجمعوا أخباره ودونوهم دون نقد ولا تمحيص.

ويتـألف القســم الثـانى مـن أخبـار الشـعراء. وقـد أهمـل يونـــس الجـاهليين والعباسيين منهـم فلـم أجـد فيمـا بـين يـدى مـن أخبـار شـيئا عنهـم. واقتصـر على المخضرمـين والاسـلاميين أو الأمويـين، فتحـدث عـن جماعـة منهـم، غـير أن القسـط الأكبر من حديثه كان عن الفرزدق ومن اتصل بهـم ومـا أشـار إليـه فـى شـعره مـن أحداث.

فلا عجب أن ينعته الناعتون بأنه كان فرزدقيا[1] . ويدل هذا على صدق قول ابن سلام حين وصف يونس فقال: "إخبارى نسابة وخاصة أخبار شعراء بنى أميـة". فكل ما بين أيدينا يؤكد الشطر الثانى من هذا القول.

أما وصفه "بالنسابة" فلم أجد فى الأخبار التى عـثرت عليهـا مـا يدعمـه غـير حديثه عن ابن مفرغ الحميرى، فقد أورد نسبه أو قطعة منه. ولم أجد ما يشـبـه ذلـك فيما بقى من حديثه عن سائر الشعراء. وكان لنا الحق فى الشك فى هـذا الوصـف، لولا أن يونس -يما يبدو- كان مشهورا بمعرفة الأنساب وما تحتوى عليه من مفـاخر

(١) أبو الفرج: الأغانى ٨ : ٥.

ومثالب، حتى ضرب به المثل. قال الجاحظ[٢]: "وصف الهذيل المازنى مثنى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام، فقال: وا لله لهو أنسب من سعيد بن المسيب وقتادة بن دعامة للناس، بل هو أنسب من أبى بكر الصديق رضى ا لله عنه. لقد دخلت على رجل أعرف بالأمهات المنجبات من سحيم بن حفص، وأعرف بما دخلها من الهجنة والإقراف من يونس بن حبيب". إذن فلا شك أنه كان نسابة حقا، وإن لم يتبين ذلك فيما بقى من مروياته.

وكشف لنا النظر فى هذه المرويات أنه أخذ قسطا منها من أستاذه أبى عمرو، والقسط الآخر من العارفين بالأخبار، المعاصرين لها، وتحرى منهم الذين اشتهروا بسعة المعرفة والثقة. وعنى فى هذه الأخبار بما اتصل بحياة الشعراء، وبما أشاروا إليه في شعرهم. وحاول الاحاطة الشاملة فى رواية الأخبار التى تضمنها الشعر، فعنى بالدقائق والتفاصيل، وصورها على اتساع مجالها دون أن يقتصر على الجزء الذى يوضح الشعر منها.

النقد

برز لنا يونس بن حبيب واحدا من علماء العربية، الذين عاشوا فى القرن الثانى، وشارك فيما أخذوا فيه. فكان له حظ من رواية الشعر، وأكثر من حظ فى العناية بأخبار أصحابه والأخبار الواردة فيه، وخاصة من العصر الأموى.

وقد احتفل علماء العربية فى هذا العهد بنقد الشعر احتفالا كبيرا، بل يمكن القول بأن هذا الاحتفال تجاوز علماء العربية إلى غيرهم من عامة الناس، بسبب ما

---

(٢) الحيوان ٣ : ٢١٠.

اشتبك فيه جرير والفرزدق والأخطل وجماعة كبيرة من الشعراء من تناقض، وترقب الناس لما يخرجه كل منهم ردا على خصمه، ثم التنازع في غلبة كل منهم على الآخر في النقيضتين آنا، وفي النقائض كلها آنا أخرى؛ وفي فن الهجاء آونة، وفي الشعر بجميع فنونه أخرى. حتى قال من أرخ للنقد العربي[1]: "غير أن الحال تغيرت كثيراً في أواخر القرن الأول، تغيرت في أخريات أيام فحول الاسلاميين. فارتقى النقد الأدبي ارتقاء محمودا، وكثر الخوض فيه، وتعمق الناس في فهم الأدب، ووازنوا بين شعر وشعر، وبين شاعر وآخر، حتى لنستطيع أن نقول: إن عهد النقد الصحيح يبتدئ من ذلك الوقت، وأن كل ما سبق لم يكن غير نواة له أو محاولات فيه".

ولم يكن من الطبيعي أن يعيش يونس في هذه المعركة الشعرية وأعقابها، وفي هذه المعركة النقدية، ولا يصاب بحماها، وخاصة أن بعض شيوخه كان لهم نصيبهم فيها.

وإذا كان الأمر كذلك، أحب أن أستهل بما اقتصر فيه يونس على الرواية، وحكاية مواقف شيوخه، ومن التقى بهم من الناس. وحين نفعل ذلك نجد يونس يروى عن أربع فئات من الناس: الشعراء، وكبار القوم، والشيوخ، وجماهير الناس.

فكان أكثر من روى عنهم الشعراء من أمثال الفرزدق، ورؤبة، وذى الرمة. وقد أوردت سابقا الخبر الذى أعجب فيه الفرزدق بشعر لنصيب حتى وصفه بأنه أشعر بني جلدته. وأما رؤبة فقد اتهم جريرا بالكذب أو الخطأ في واحد من معانيه، كما سبق أن رأينا.

(١) طه احمد ابراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٣٣.

وروى نقدين عن اثنين من خلفاء بني أمية، وهما سليمان بن عبد الملك، الذى شارك الفرزدق فى الاعجاب بأبيات نصيب؛ وعبد الملك بن مروان الذى فضل أبياتا للأعشى على أبيات لكثير. قال ابن سلام[1]: "قال يونس: أنشد كثير عبد الملك مدحته التى يقول فيها:

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة ... أجاد المسدى سردها وأذالها
يؤود ضعيف القوم حمل قتيرها ... ويستضلع القوم الأشم احتمالها

فقال له عبد الملك: قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحب إلى من قولك إذ تقول". أراد بقول الأعشى:

وإذا تجىء كتيبة ملمومة ... شهباء يخشى الذائدون نهالها
كنت المقدم، غير لابس جنة ... بالسيف تضرب معلما أبطالها

وآثر برواية النقد شيخا واحدا هو ابن أبى اسحاق، فحكى مواقفه من الفرزدق، والمعركة التى احتدمت بينهما بسبب ما ارتكب الشاعر فى لغته. وروى عنه رأيا كان منكرا له. قال ابن سلام[2]: "أخبرنى يونس كالمتعجب أن ابن أبى إسحاق كان يقول: أشعر أهل الجاهلية مرقش، وأشعر أهل الاسلام كثير. ولم يقبل هذا القول ولم يشع".

أما الجماهير التى أورد آراءها فقد قال ابن سلام بصددها[3]: "أخبرنى يونس

---

(١) الموشح ١٤٥. وانظر تكملة الخبر ورد كثير عند ابن سلام ٤٥٨.

(٢) طبقات فحول الشعراء ٤٤، ٤٥٧.

(٣) نفس المرجع ٤٤.

ابن حبيب: أن علماء البصرة كانوا يقدموا امرأ القيس بن حجر، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى، وأن أهل الحجاز يقدمون زهيرا". وأضاف السيوطى[1]: "وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحدا، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحدا".

وكل هذه الأقوال غير ذات أهمية كبيرة للبحث عن يونس، لأنها لا تكشف عن موقف للرجل، ولا تبين رأيا خاصا له، غير استنكاره لما قال أستاذه ابن أبى إسحاق. وإن يونس لتروى عنه أقوال نقدية كثيرة تغنينا عن الالتفات إلى مروياته.

ونستطيع أن نجعل هذه الأقوال أصنافا. نبدأ منها بأحكامه العامة على فن الشعر. فقد روى سليمان بن إسحاق الزبالى عنه أنه قال[2]: "الشعر كالسراء والشجاعة والجمال لا ينتهى منه إلى غاية". ويدل هذا القول على أن الرجل كان يرى أن هناك أمورا معنوية، وتقديرية، يختلف النظر فيها، ولا يستطيع أن يحكم أنها انتهت إلى غاية لها لا تتجاوزها بل لايستطيع أحد أن يقارن بين المغترفين منها: أيهم أعظم حظا منها، وخاصة عندما يتقارب نصيبهم. ومن هنا كان عسيرا أن نصل إلى رأى مجمع عليه أن فلانا أشعر الشعراء. ولا أتفق مع الصديق الدكتور محمد زغلول سلام[3] أن هذا القول بصدد صلة الشعر بالأحاسيس الانسانية.

وننتقل من فن الشعر عامة إلى أغراضه، فقد كان ليونس نظرات فى بعضها. فقد حاول أن يعرف المدح والتأبين ويفرق بينهما، فقال[4]: "التأبين مدح الميت والثناء عليه. قال رؤبة: (فامدح بلالا غير ما مؤبن) والمدح للميت". ولست أدرى

(١) المزهر ٢ : ٤٨٢.

(٢) ابن سلام ٥٥.

(٣) تاريخ النقد العربى ٣١.

(٤) ابن سلام ١٧٤.

أيفرق يونس بين التأبين والرثاء أم لا . ولكن ما قاله هنا عده النقاد التعريف الصحيح، ولم يفرقوا بينه وبين الرثاء. فشاع[1] بينهم أن الرثاء ثناء على الميت، وأن لا فرق بينه وبين المديح غير موت المقصود بالأول وحياة المقصود بالثاني. وفقدنا عندهم الشعور بالأسى واللوعة من أجل الفقيد، إلى أن تنبه إليه ابن رشيق فأبرزه وإن كان قد قصره على طبقة خاصة من الناس، قال[2]: "سبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا". ولحسن الحظ أن الشعراء لم يأبهوا لهذا الكلام وساروا في طريقهم مظهرين ما شاءوا من عواطف، فمنحونا مجموعة من روائع الرثاء.

ونظر في الهجاء، ومسالك الشعراء فيه، واستجابة الناس لكل واحد منها، فقال[3]: "أشد الهجاء بالتفضيل، وهو الإقذاع عندهم". وقدأخذ يونس هذا القول مما جرى بين عمر بن الخطاب والحطيئة. قال ابن رشيق[4]: "لما أطلق عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الحطيئة من حبسه إياه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر، قال له: إياك والهجاء المقذع. قال: وما المقذع يا أمير المؤمنين؟ قال:المقذع أن تقول: هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبني شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم. قال: أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم مني بمذاهب الشعر..".

ولم يتفق كثير من النقاد مع يونس في كون هذا النوع من الهجاء أشدها. فالأقوال متعددة في هذا الصدد تكشف عن اختلاف كبير، لعله يكشف عن

(١) الدكتور أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب ٢٢٤.

(٢) العمدة ٢ : ١٧٤.

(٣) العمدة ٢ : ١٧٠.

(٤) العمدة ٢ : ١٧٠.

مزاج القائل، ومزاج العصر الذى كان يعيش. فعلى حين يقول أبو عمرو بن العلاء[1]: "خير الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها" يؤيده خلف الأحمر ويقول[2]: "أشد الهجاء أعفه وأصدقه" يقول القاضى الجرجانى[3]: "فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه، وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس. فأما القذف والإفحاش فسباب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم"، ويرى قدامة بن جعفر[4] أن الهجاء الجيد يكون بسلب الفضائل النفسية.

ونظر فى تحسر الشعراء على الشباب المولّى، واستذكر ما يعرف من شعر، فوجد أنه لايفى بحق هذا العزيز الذاهب. قال [5]: "ما بكت العرب على شيء بكاءها على الشباب، وما بلغت به كنه ما يستحق". وقد أخذ الصولى[6] عنه هذا الحكم، وأفاد منه فى تفضيل مقطوعة لمنصور النمرى.

والتفت إلى العيوب العروضية التى تلحق الشعر، فقال [7]: "عيوب الشعر أربعة: الزحاف والسناد والايطاء والاكفاء – وهو الإقواء".

وقد اتفق يونس فى تعريفه هذا للاكفاء مع[8] "جلة العلماء كأبى عمرو بن

(١) العمدة ٢ : ١٧٠.

(٢) العمدة ٢ : ١٧٠.

(٣) الوساطة ٢٤.

(٤) نقد الشعر ٣٠ .

(٥) المبرد: الفاضل ٧٢ . الزبيدى ٤٩.

(٦) أخبار أبى تمام ٢٧.

(٧) ابن سلام ٥٦.

(٨) العمدة ١ : ١٦٦.

العلاء، والخليل بن أحمد، وأحمد بن يحيى ثعلب"، غير أن المفضل الضبى والمبرد خالفاه وجعلا الاكفاء اختلاف الحروف فى الروى.

ونبه إلى جماعة من كبار الشعراء وقعوا فيه ولم يفطنوا إلى تبرئة شعرهم منه. قال(١) : وقد ركب بعض الفحول الإقواء فى مواضع مثل سحيم بن وثيل الرياحى فى قوله:

عرين من عرينة ليس منا   برئت إلى عرينة من عرين
عرفنا جعفرا وبنى عبيد   وأنكرنا زعانف آخرين"

وهون يونس من شأن الزحاف، دون بقية العيوب العروضية، فقال(٢): أهون عيوب الشعر الزحاف وهو أن ينقص الجزء عن سائر الأجزاء". فاتفق فى هذا مع الخليل، الذى ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه يونس، فاستحسن القليل منه فى الشعر(٣).

وعثرت على قولين يدلان على أن يونس تحدث فى أشياء تندرج تحت ما عرفه النقاد بالسرقات الشعرية. فاستبعد فى قول الزبرقان الذى ذكرته آنفا السرقة، ورأى أنها تضمين لبيت على هيئة المثل السائر.

ويبدو أن يونس اعتمد فى إنكار أن يكون هذا الأمر من السرقة على أستاذه أبى عمرو بن العلاء(٤) الذى لم ير ذلك عيبا.

---

(١) قدامة : نقد الشعر ١٠٩.
(٢) الموشح ٨٣. قدامة : نقد الشعر ١٠٧.
(٣) ابن سلام ٥٨.
(٤) العمدة ٢ : ٢٨٣.

ونبه في القول الثاني إلى أحد المعاني التي استوحاها جرير من القرآن. فقد علق على بيته:

مازلت تحسب كل شيء بعدهم   خيلا تشد عليكم ورجالا

فقال[1]: "أخذ هذا المعنى من قول الله: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو﴾".

وعند يونس كثير من الأحكام العامة. أطلق بعضها على قبائل، مثل قوله [2]: "ليس في بني أسد إلا خطيب أو شاعر أو قائف أو زاجر أو كاهن أو فارس. وقال: وليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العَدْو". وأطلق بعضها الآخر على شعراء، أعجب بشعرهم أو استهجنه جملة. فقد كان يعجب بشعر النابغة الجعدى، ورجز رؤبة، ويثني عليهما. روى الجاحظ عنه أنه قال[3]: "انما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدى ورؤبة". واستنبط من ذلك أنه كان يميل إلى الشعر غير المصنوع المجرد، ويفضله على الشعر الذى يتروى فيه صاحبه ويتأنق. وروى ابن سلام أنه كان معجبا أيضا بشعر ابن قيس الرقيات وعبدا لله بن الزبعرى من القرشيين، قال[4]: "كان عبيد الله أشد قريش أسر شعر في الاسلام بعد ابن الزبعرى". وكان الأخطل من الشعراء الذين أعجب بعذوبة شعرهم، قال[5]: "ما أكثر ماء شعر الأخطل". وأعتقد أني في غنى عن الاشارة إلى إعجابه بشعر الفرزدق لما احتوى عليه من أخبار الناس.

---

(١) الجاحظ : الحيوان ٥ : ٢٤٠.

(٢) الجاحظ : البيان ١ : ١٧٤.

(٣) البيان ٣ : ١٣، ٣ : ١١، ٤ : ٨٤.

(٤) طبقات فحول الشعراء ٥٣٠.

(٥) الصولي: أخبار أبي تمام ٣٣.

وكان البعيث المجاشعي في مرحلة متوسطة، إذ أساء في فن وأحسن في آخر، قال عنه[1]: "لعمري لئن كان مغلّبا في الشعر، لقد كان غَلَب في الخطب". وكان الأديب إذا غلبه خصومه قيل: مغلب، وإذا غلبهم هو قيل: غُلّب[2].

أما الشاعر الذى لم يرض عنه فهو عبيد ا لله بن الحر. قال إسحاق[3]: "قلت ليونس: عبيد ا لله بن الحر يقوى؟ فقال: الإقواء خير منه".

وهناك رجل آخر لم يكن شاعرا، ولكنه كان بليغا، لفت إليه أنظار يونس، فتعلقت به فى إعجاب خالص، وجعلته يقول[4]: "ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن [عثمان] البتى".

وأشاد يونس بالنابغة الجعدى وروبة والعجاج مرة أخرى، غير أنه أزاح الستار فى هذه المرة عن الغرض الشعرى الذى يرى كلا منهم قد برز فيه أكثر من غيره. قال ابن سلام[5] : "يونس : كان الجعدى أوصف الناس لفرس. أنشدت قوله رؤبة:

فإن صدقوا قالوا: جواد مسجرب ضليع ومن خير الجياد ضليعها

قال رؤبة: ما كنت أرى المرهف منها إلا أسرع. ولم يكن رؤبة والعجاج صاحبى خيل، ولكن كانا صاحبى إبل ونعتها".

وقال المرحوم الأستاذ طه أحمد إبراهيم[6]: "عرف يونس أن امرأ القيس

---

(١) الجاحظ: البيان ١ : ٣٧٤ ، العصا ٢٠١ . السيوطى : المزهر ٢ : ٤٨٨.

(٢) ابن قتيبة عن يونس : أدب الكاتب ١٧٣.

(٣) قدامة : نقد الشعر ١٠٩. الجاحظ : الحيوان ١ : ١٣٤.

(٤) الميدانى: مجمع الأمثال ٢ :٢٠٦. وانظر سعيدا الأفغانى: فى أصول النحو ٥٦ (الحواشى).

(٥) الطبقات ١٠٧. الجاحظ: رسائله ٢ :٢٢٠.

(٦) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٦٣.

وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر وعبد بنى الحسحاس وذا الرمة كانوا يحسنون وصف المطر".

وأعتقد أن الأمر اختلط عليه، فالذى أدلى بهذا الحكم هو ذو الرمة لا يونس، كما يدل قول ابن سلام[1] : "أخبرني يونس بن حبيب قال: قيل لذى الرمة: من أحسن الناس وصفا للمطر؟ فذكروا قول عبيد:

دان مسف فويق الأرض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح

.. وذكروا قول عبد بني الحسحاس:

تعبت به ظنا وأيقنت أنه   يحط الوعول والصخور الرواسيا

.. فقال بل قول امرئ القيس أجود حيث يقول:

ديمة هطلاء فيها وطف   طبق الأرض تحرى وتدر"

ولما كان العصر الذى عاش فيه يونس عصر الموازنة بين الشعراء، وتفضيل أحدهم على الآخر، بل تفضيل أحدهم على جميع الشعراء أحيانا؛ كان من الطبيعى أن يشارك رجل مثله فيما يخوض فيه الناس أو يضطر إلى ذلك، وإن كان لا يؤمن بصحة هذا المسلك. فقد رأيناه يحكم بعسر الوصول إلى أمثال هذه الأحكام المطلقة فى الأمور التقديرية. وقد أحسن يونس كل الاحسان عندما تهرب من سؤال بتفضيل واحد من الشعراء، ولجأ إلى الفن الذى أحسن فيه كل شاعر. قال ياقوت[2]: "حدث محمد بن سلام قال: "سألت يونس النحوى عن أشعر الناس، فقال: لا أومى إلى رجل بعينه، ولكنى أقول: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا

(١) الطبقات ٧٦.

(٢) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥.

رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب". عنى بذلك أن امرأ القيس تفوق على غيره فى وصف الخيل، والنابغة فى الاعتذار، وزهيرا فى المدح، والأعشى فى وصف الخمر. وقد وجد هذا القول قبولا عاما من الأدباء والنقاد منذ صدوره إلى يومنا هذا، وكثر ترديده على كل لسان تعرض لهؤلاء الشعراء. ولكننا لسنا على يقين من صدوره عن يونس. فقد روى[1] أن قائله كثير أو نصيب، فإن كان ذلك حقا كان يونس راويا له لا مبتكرا. ورواه الأصمعى أيضا عن ابن أبى طرفة.

وبالرغم من كل هذا الحرص الذى أبداه يونس، والتوقى فى خوض غمار معركة التفضيل بين الشعراء، وقع فيها واصطلى بلهيبها، وخرج برأى غريب، لم يرافقه أحد فيه، وأعتقد أن الذى فرضه عليه أهدافه اللغوية. قال ابن رشيق[2]: "زعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد. وقال: إنما هو كلام فأجودهم كلاما أشعرهم، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول: لو كان فى مكانه غيره لكان أجود. وذكر أنه صنع أرجوزته:

* قد جبر الدين الاله فجبر *

فيها نحو مئتى بيت وهى موقوفة مقيدة. قال: ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها".

ويبدو أن تلميذه أبا عبيدة حاول أن يزيد هذا الكلام إيضاحا، ويدعمه بأدلته، فقال[3]: "انما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك، إذا

---

(١) العمدة ١ : ٦٥.

(٢) العمدة ١ : ٨٩. أبو الفرج (طبعة الساسى) ١٨ : ١٢٤. المزهر ٢ : ٤٨٤.

(٣) العمدة ١ : ٩٠.

حارب أو شاتم أو فاخر، حتى كان العجـاج أول مـن أطالـه وقصَّـده، ونسـب فيـه، وذكر الديار، واسـتوقف الركـاب عليهـا، ووصـف مافيهـا، وبكـى علـى الشـباب، ووصف الرحلة، كما فعلت الشعراء بالقصيد؛ فكان فى الرجاز كامرئ القيـس فـى الشعراء".

وإذا كان يونس فقد الرفيق فى تفضيله المطلـق للعجـاج علـى سـائر الشـعراء والرجاز، فقد كان أكثر توفيقا فى أحكامه التـى وازن فيهـا بـين شـاعرين أو ثلاثـة، ولقى من يؤيده ويؤنسه فى طريقه. روى الكسائى[1]: "حضرت مجلسا والخليـل فيـه ويونس بن حبيب النحوى، فتذاكروا الشعر. فتكلم يونس فى تقديم زهير وتقريظـه حتى أغرب فى وصفه. وذكر الخليل النابغة الذبيانى".

وكلا الرجلين اعتمد على سـابقين لـه فـى تفضيـل الشـاعر الـذى فضـل[2] ، وتابعه فى رأيه لاحقون.

ولما كان يونس يفضل العجاج على الجميع فقد مد رأيه هـذا علـى ابنـه رؤبـة أيضا. قال أبو عبيدة[3] : "قال رؤبة ليونس: أنا أشعر من أبى. قال: بل أبـوك أشـعر منك. قال : أبى يقول:

يـادار سـلمى، اسـلمى ثـم اسـلمى ... بسمسـم أو عـن يمـين سمسـم"

وكانت الظروف جميعا تجبره أن يخوض مع الخائضين فـى المعركـة بـين شـعراء بنـى أميـة الثلاثـة. فجعلهـم مراتـب ثلاثـا. كـانت المرتبـة الأولى للأخطـل، والثانيـة

(١) مجالس العلماء ٢٥٩.

(٢) ابن سلام ٤٧، ٥٢. ابن رشيق ١ : ٩٨.

(٣) الموشح ٢١٨.

للفرزدق، والثالثة لجرير. قال أبو عبيدة[1] : " جاء رجل إلى يونس فقال له: من أشعر الثلاثة؟ قال: الأخطل. قلنا: من الثلاثة ؟ قال : أى ثلاثة ذكروا فهو أشعرهم. قلنا : عمن تروى هذا؟ قال: عن عيسى بن عمر وابن أبى إسحاق الحضرمى وأبى عمرو بن العلاء وعنبسة الفيل وميمون الأقرن ، الذين ماشوا الكلام وطرقوه .. لا كأصحابك هؤلاء لا بدويون ولا نحويون. فقلت للرجل: سله: وبأى شئ فضلوه؟ قال: بأنه كان أكثرهم عدد طوال جياد، ليس فيها سقط ولا فحش، وأشدهم تهذيبا للشعر. فقال أبو وهب الدقاق. أما إن حمادا وجنادا كانا لايفضلانه! فقال: وما حماد وجناد؟ لا نحويان ولا بدويان، ولا يبصران الكسور ولا يفصحان، وأنا أحدثك عن أبناء تسعين أو أكثر، أدواإلى أمثالهم، ما شوا الكلام وطرقوه حتى وضعوا أبنيته، فلم تشذ عنهم زنة كلمة، وألحقوا السليم بالسليم والمضاعف بالمضاعف والمعتل بالمعتل والأجوف بالأجوف وبنات الياء بالياء وبنات الواو بالواو، فلم تخف عليهم كلمة عربية. وما علم حماد وجنادا!".

وعقب ياقوت على هذا القول بأن يونس انفرد به. وذلك غير صحيح. فابن سلام يقول[2] : "فاختلف الناس فيهم أشد الاختلاف وأكثره. وعامة الاختلاف أو كله فى الثلاثة . ومن خالف فى الراعى قليل، كأنه آخرهم عند العامة" يريد عامة العلماء. وأبو عبيدة يقول أيضا[3] : "كان يونس بن حبيب وعيسى بن عمر وأبو عمرو يفضلون الأخطل على الثلاثة". ولا نعجب لهذا كثيرا إذا وضعنا أمامنا عبارة أبى عبيدة التى تبرز نظرتهم إلى الأخطل،

(١) الأغانى ٨ : ٢٨٣. اليزيدى: الأمالى ٨٠. الزمخشرى: ربيع الأبرار ٤ : ١٠٤ معجم الأدباء ٢٠: ٦٥.
(٢) الطبقات ٢٥١.
(٣) الأغانى ٨ : ٣٠٥.

قال[١] : "الأخطل أشبه بالجاهلية، وأشدهم أسر شعر، وأقلهم سقطا" . فقد كانوا بشعراء الجاهلية أعلق وألزم.

ولم أعثر على قول ليونس فضل فيه الفرزدق على جرير. ولكن أبا الفرج حكى ذلك في قوله [٢] : "كان يونس فرزدقيا"، وأبان ابن سلام أبعاد هذا الاعجاب في قوله[٣] : "كان يونس يقدم الفرزدق بغير إفراط".

وأورد الدكتور محمد زغلول سلام خبرا بشأن الموازنة بين الشعراء الثلاثة يدل على أن يونس كان يقدم الفرزدق عليهم جميعا. قال[٤] : "كان يونس بن حبيب يفضل الفرزدق. ويعلل ذلك بأنه أكثرهم عدد قصائد طوال جياد، ولم نجد للأخطل عشرا بهذه الصفة، ووجدنا لجرير ثلاثا بهذه الصفة". ولكنه لم يذكر مصدر الخبر، ولم أجده في موضع آخر. وأخشى أن يكون الأمر اختلط فيه بين الفرزدق والأخطل، إذ أن ما حكاه عن الفرزدق ينطبق على ما أوردته آنفا عن الأخطل. وأخشى أيضا أن يكون هذا الخبر قد خلط إلى جانب ذلك كلام يونس بتعليق أبي عبيدة عليه حين قال[٥] : "فنظرنا في ذلك، فوجدنا للأخطل عشرا بهذه الصفة، وإلى جانبها عشرا إن لم تكن مثلها فليست دونها، ووجدنا لجرير بهذه الصفة ثلاثا؟.

وما عثرنا عليه من نقد تطبيقي عند يونس قليل كل القلة. فقد عاب صورة

---

(١) الأغاني ٨ : ٣٩٢.

(٢) الأغاني ٨ : ٥ .

(٣) الطبقات ٢٥١.

(٤) تاريخ النقد العربي ٨٩. وانظر ما يضعف هذا الخبر عند ابن سلام ٣١٥، والمرزباني في الموشح ١١٦.

(٥) الأغاني ٨ : ٢٩٢.

رسمها امرؤ القيس بأنها غير حقيقية. قال ابن سلام[1] : " أنشدت يونس النحوى هذا البيت الذى لامرئ القيس:

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل

فزوى وجهه وجمع حاجبيه وقال: أخطأ مع إحسانه، إن الثريا لا تعترض، انما الاعتراض للجوزاء، هلا قال كما قال ذو الرمة:

وردت اعتسافا والثريا كأنها   على قمة الرأس ابن ماء محلق".

وعاب فى قول ثان لفظا استخدمه الأعشى، وفضل عليه أبياتا لمروان بن أبى حفصة من نفس روى شعر الأعشى ووزنه. قال المرزبانى[2] : "حدثنا الأصمعى قال : كنا فى حلقة يونس فجاء مروان بن أبى حفصة فقال: أيكم يونس؟ فأومأنا إليه فجلس. فقال: أصلحك الله، إنى أرى أقواما يقولون الشعر لأن يكشف أحدهم عن سوءته فيمشى فى الطريق أحسن به من أن يظهر مثل ذلك الشعر، وقد قلت شعرا أعرضه عليك، فإن كان جيدا أظهرته، وإن كان رديئا سترته. وأنشده:

طرقتك زائرة فحى خيالها   بيضاء تخلط بالحياء دلالها

فقال له: ياهذا، اذهب فأظهر هذا الشعر، فأنت والله فيه أشعر من الأعشى. يريد فى قوله:

رحلت سمية غدوة أجمالها ...

فقال له مروان: قد سؤتنى وسررتنى، فأما الذى سررتنى به فلارتضائك الشعر، وأما الذى سؤتنى به فلتقديمك إياى على الأعشى. قال: نعم، إن الأعشى قال:

---

(١) الطبقات ٧٣. ابن منظور: نثار الأزهار ١٠٩.

(٢) الموشح ٥٥ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٦.

فرميــت غفلـــة عينـــه عـن شاتــه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فأصـــبت حـــبة قلبـــها وطحالهـا

والطحال لا يجعل فى شيء إلا أفسده، وأنت لم تقل ذلك". وأحب أن أشفع هذا الخبر بشك فيـه، إذ سبق أن ذكرت أن يونس أبى أن يستمع إلى القصيدة، وأمهل الشاعر إلى أن يأتى خلف الأحمر ليكون هو الحكم. وهناك مصادر ترى أن خلفا هو صاحب هذا القول.

ونخرج من دراسة النقد عند يونس بصورة عن الرجل، تبرز بعض الجوانب فيه، وتغفل بعضها الآخر. فتبرز لنا الصورة هوى الرجل، وأين يتجه مزاجه.

فهو يحب من الشعر: ما كان من حيث المضمون كثير الأخبار كشعر الفرزدق، أو مانحا للعظة وحاثا على الخلق الكريم مثل شعر عدى بن زيد العبادى؛ ومن حيث الشكل وافر الرونق والعذوبة كشعر الأخطل، محكما متلاحما كشعر ابن قيس الرقيات وابن الزبعرى، والأخطل أيضا الذى كان يعنى بتهذيب شعره.

قال ابن سلام[1] : " سمعت يونس وقد تمثل بهذا البيت:

أيهـــا الشـــامت المـــعير بالدهـــ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ـــر أأنـــت المـــبرأ الموفــــور

أم لديـــك العهـــد الوثـــيق من الأيا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ م ؟ بـــل أنـــت جاهـــل مغـــرور

فقال: لو تمنيت أن أقول شعرا ما تمنيت إلا هذه، أو مثل هذه" .

وأقف أمام ما ذكره الجاحظ أن يونس كان يحب من الشعر غير المصنوع ولا المحبر، فيأتى بعضه سامى الارتفاع وبعضه الآخر ساقطا، كما كان تلميذه الأصمعى[2] يحبه كذلك. فان أكثر ما بين يدىى من أقوال يعارض هذا التصريح.

---

(١) الطبقات ١١٨.

(٢) ابن سلام ١٠٥ . ابن رشيق ١٠٧.

فتفضيل الرجل لزهير بن أبي سلمى، الذى كان أكبر رأس فى مدرسة عبيد الشعر، حتى قال عنه[1]أهل النظر: كان زهير أحصفهم شعرا، وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق، وأشدهم مبالغة فى المدح، وأكثرهم أمثالا فى شعره"؛ وتقديمه للأخطل الذى نظّره أستاذه أبو عمرو[2] بالنابغة من الجاهليين، الذى احتج من فَضَّله بأنه[3] " كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتا، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف" ؛ وتأخيره لجرير الذى لم يكن يروِّى فى شعره[4] ؛ كل ذلك يدل على أن التوفيق خان الجاحظ فى قوله، وأنه ربما أراد الأصمعى فذكر يونس سهوا.

وتبرز لنا الصورة المنهج الذى كان يؤثره الرجل فى النقد، فقد كان يعتمد أكثر ما يعتمد على الموازنة. قال ابن دريد[5] : "قيل ليونس أو خلف: بم تعرف الشعر الجيد؟ فقال: بالشقشلة. قال: الشقشلة: أن تزن الدينار بازاء الدينار لتنظر أيهما أثقل، ولا أحسبه عربيا محضا".

وكان عند الموازنة يبحث عن آراء السابقين ممن درسوا كلام العرب، وألفوه، وعايشوه، فعرفوا مسالكه ودروبه، وهم البدو وعلماء العربية. ولم يكن يتقبل أقوالهم على علاتها، بل رفض بعضها كما فعل مع ابن أبى إسحاق.

وكان يقيم مقارنته بين الشعراء، وتفضيله أحدهم على نظيره، على عدة

---

(١) ابن سلام ٥٣.
(٢) ابن سلام ٥٥.
(٣) ابن سلام ٤٦. وانظر وصف يونس وأبى عبيد السابق لشعره.
(٤) ابن سلام ٣١٥.
(٥) الجمهرة ٣ : ٣٤٤. المزهر ١ : ٢٧٨.

أسس كشف عنها في حديثه عن العجاج والأخطل. الأساس الأول كثرة ما أصدر من قصائد. وتزداد هذه القصائد قيمة عند طولها، حتى أشاد بأن أرجوزة العجاج بلغت مئتي بيت. والأساس الثاني الجودة. ولم يسكت الرجل عند ذلك، بل أبان لنا بعض المظاهر التي نعتمد عليها في الحكم بالجودة. فكانت عنده تجنب الفحش، وقد أتاه ذلك من الجانب الخلقي الذي التزمه في حياته. وكانت تجنب السقط، وهو ما عبر عنه بطريقة أخرى حين قال: "ليس في شعره شيء يستطيع أحد أن يقول: لو كان في مكانه غيره لكان أجود".

ونحن عند التأمل في هذين الأساسين اللذين وضعهما للمفاضلة بين الشعراء نتبين أنهما أهم الأسس التي اتخذها محمد بن سلام بعد ذلك مقياسا لتقسيم الشعراء إلى طبقات . فكأن يونس أهدى إلى تلميذه أهم عمد كتابه الذي يعد أحسن ما أصدره العرب في النقد في عصره. حقا، اعتمد ابن سلام على كثيرين من العلماء السابقين على يونس، والمعاصرين له، واللاحقين؛ ووسع أسس يونس فكشف فيها عما لم يفطن الرجل ، ولكن ذلك كله لا ينقص من قدر يونس، وخاصة إذا أضفنا ما أدلى به من أحكام في انتحال الشعر اتخذها ابن سلام أيضا مع غيرها عمادا لما أقام به الدنيا وأقعدها في أقواله في هذا الصدد.

ويبدو أن يونس كان على حظ كبير من قوة الملاحظة، أعانه على التنبه إلى أشياء اعتمد عليها في نقده. فقد كان القدماء يحكون الخبر التالي في عجب، مستدلين به على توارد خواطر الشعراء على الصورة الواحدة. قال بلال بن جرير الشاعر [1] : "وقف الفرزدق على أبي بمربد البصرة، وهو ينشد قصيدته التي هجا

(١) الأغاني ٨: ٣٤ - ٥ . والعنفقة : شعرات بين الشفة السفلى والذقن.

بها الراعى .. فلما بلغ إلى قوله:

* بها برص بجانب اسكتيها *

وضع الفرزدق يده على فيه وغطى عنفقته، فقال أبى:

* كعنفقة الفرزدق حين شابا *

فانصرف الفرزدق وهو يقول: "اللهم أخره، وا لله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لايقول غير هذا، ولكن طمعت ألا يأبه فغطيت وجهى، فما أغنانى ذلك شيئا". أما يونس فيذهب إلى أبعد من ذلك ويقول: "ما أرى جريرا قال هذا المصراع إلا حين غطى الفرزدق عنفقته، فإنه نبهه عليه بتغطيته إياها".

كل ذلك يجعلنا لا نعجب حين نرى الناشئين من الشعراء يعرضون عليه شعرهم ليتعرفوا رأيه فيه، ويقوِّم منه ما يستحق التقويم، كما فعل مع مروان، وكما يبين الخبر التالى. روى محمد بن سلام عن وهب بن أبى إبراهيم التميمى البرجمى[1] : "جاشت نفسى بشىء من الشعر، فقلت ليونس: إن رجلا صاحب شعر، وقد جاشت نفسه بشىء منه، وهو يكره أن يخرجه حتى تسمعه. قال: هات. فأنشدته فقال: من هذا العاض بظر أمه".

ولا نعجب أن يلقى يونس الثناء من القدماء والمحدثين. قال ياقوت[2] فبالغ كما كان يبالغ القدماء: "كان يونس عالما بالشعر، نافذ البصر فى تمييز جيده من رديئه، عارفا بطبقات شعراء العرب.. يرجع إليه فى ذلك كله". وقال الدكتور محمد مندور[3] مقتصدا كا يفعل المحدثون: "وجد نقاد الشعر الخبيرون كالضبى

---

(١) الموشح ٣٦٧.

(٢) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥.

(٣) النقد المنهجى عند العرب ١٧.

وخلف ويونس بن حبيب ثم الجمحى" . وقال طه أحمد إبراهيم[1] : " فأما أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب فلهما فى نقد الأدب آراء حسنة، ولهما فيه أثر جليل. يعدان فى النحويين، ويعدان كذلك فى اللغويين الذين وطدوا النقد الأدبى، ونظموا بحوثه، واستنبطوا مقاييسه".

النظم

قال الفيروز آبادى فى تعريف يونس بن حبيب[2] : "الأديب الشاعر".

أما الأديب فهو لقب استحق أن يتحلى به بما كان له من مشاركة فى رواية الشعر، وجهد فى حكاية الأخبار التى استخرجها منه، وجهود مشرقة فى النقد. بل ربما استحقه بجهوده فى اللغة والنحو، إذ أطلق بعض المؤرخين على رجال العلمين الأخيرين رجال الأدب، وعدوا يونس "من الطبقة الخامسة فى الأدب"[3] أرادوا بذلك الجيل الخامس من اللغويين والنحاة. وصنيع ياقوت فى معجم الأدباء أشهر من أن يذكر، حين أدخل فيه كل صاحب تأليف على اختلاف العلوم والفنون.

وأما الشاعر فلقد انفرد به الفيروز آبادى، وله مدلول واحد لم يضق فتنحسر عنه جماعة ولا اتسع فتندرج تحته كرة أخرى، مثل اللقب السابق. ولم يقع فى يدى بيت واحد صرح أحد الكتاب أنه من نظم يونس. بل إن العبارة التى أثبتها سابقا، وتحكى إعجاب يونس ببيت عدى بن زيد العبادى تبين فى جلاء أنه ليس بشاعر، قال: "لو تمنيت أن أقول شعرا .. " فهو لم يقل شعرا ولا تمنى أن يقوله. ولذلك أعتقد أن هذا القول سهو من الفيروز آبادى.

---

(١) تاريخ النقد الأدبى ٥٢.

(٢) تحفة الأبيه ١١٠.

(٣) ابن خلكان ٢ : ٤١٦. ابن العماد ١ : ٣٠١.

الفصل الثانى

الدراسات اللغوية

اللغة

أعلن مـن أرخـوا ليونـس بـن حبيـب أنـه أصـدر أربعـة كتـب. إذا نظرنـا إلى عناوينهـا جعلنـا الرجـل مـن العلمـاء باللغـة والقـرآن والأدب. فـإذا أدمنــا النظــر وعمقناه، واستنبطنا الظواهر، تبـين أن الكتـب الأربعـة تعطينـا صـورة واحـدة، هـى صورة اللغوى. فالرجل كان لغويا فى جهوده جميعا. اتخـذ مـن اللغـة وسـيلة وغايـة. فعنى بكل ما يجعله قادرا على الاحاطة باللغة، من شعر وأخبار ونقد، عارفا بمســالك العرب فى حديثهم من نحو وصرف .

ولو وصلت الينا هذه الكتب لمنحتنا صورة وافية لـلرجل، ولكننـا مضطـرون الى استقصاء الأقوال المتناثرة منه فى الكتب المختلفة للتعرف عليــه، كمـا فعلنـا فـى بقية الحقول التى عنى فيها. ولحسن الحظ أن ما بقى من هذه الأقوال غير قليل .

وأحب للتيسير أن أعتمد على تصنيف ما لهذه الأقوال. فأبدأ بمـا أدلى بـه مـن أقوال عن "اللفظ" . وحينئذ أجد أنه عـالج فيمـا عـالج صـورة هـذا اللفـظ ومعنـاه. وكانت جل عنايته موجهة إلى هذه الصورة عندما تتعـدد بـالضبط مـع بقـاء مدلولهـا واحدا لا يتغير. روى ابن دريد عنه[1]: "تقـول العـرب: إن فـى مـض لمطعمـا، وفـى مض، ومض: يريدون بذلك كسر الرجل شدقه عند سؤال الحاجة". وروى ابــن

(١) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ . وميم مض بالكسر والفتح والضم.

السكيت عنه[1] : "أبى قائلها إلا تما وتما وتما – ثلاث لغـات: يعنـى تمـام الكـلام" و "أهل العالية يقولون: السم والشهد، وتميم تقول: السم والشهد"[2] .

وعالج صورة اللفظ عندما يتعدد ضبطها مع تعدد مدلولها أيضا. روى عنه ابن السكيت[3] : "غرفت غرفة واحدة، وفى الإناء غُرفة، وحسوت حَسوة واحدة، وفى الاناء حُسوة".

وعالج صورة اللفظ عندما تتعدد هيئتها ويتغير تكوين حروفها، مع بقاء معناها واحدا. روى عنه ابن السكيت[4] : "ذوى العود يذوى ذويا، وقد ذأى يـذأى ذأوا. وقال الأصمعي: ولا يقال ذوى. قال أبو عبيدة: قال يونس: هـى لغـة" .وروى ابـن دريد عنه[5] : "ذففه بالسيف وذافه وذفّه: إذا أجهز عليه، وذفف عليه. ودففه ودافه ودفه ودفف عليه: إذا أجهزه، أى قتله".

ويبدو أنه خاف أن يقع تصحيف فى بعض الألفاظ، فأعلن عن الحروف التـى خاف فيها ذلك بالعبارة. روى عنه ابن دريـد[6]: "حفصـت الشـىء – بالصـاد غـير المعجمة: إذا ألقيته من يدى. وحفضته – بالضاد معجمة : إذا عطفته" .

ووجه أكبر قسط من عنايته إلى الصيغ غير الشائعة من الألفاظ. فكان جل الأفعال التى أوردها فى كتبه، ونقلتها عنه المصادر الباقية من هـذا النـوع الـذى قـد نسميه تيسيرا "الغريب" مهمـا كـان أصلـه أو اسـتعماله. فنجـد فـى هـذه الألفـاظ:

---

(1) إصلاح المنطق ٩٨ . والتاء بالكسر والضم .

(2) إصلاح المنطق ١٠٤ . أهل العالية يضمون الحرف الأول وتميم تفتحه .

(3) إصلاح المنطق ١٢٩ . أدب الكاتب ٢٤٧ ، ٤٣٥ . المزهر ٢ : ٢٩٩ .

(4) إصلاح المنطق ٢١٣ . أدب الكاتب ٣٦٦ .

(5) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .

(6) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .

الأفعال الثلاثية السالمة، مثل ما رواه ابن السكيت[1] : "وقد بعـل الرجـل يبعـل: اذا صار بعلا، حكاها يونـس، وأنشـد: * يـارب بعـل سـاء مـا كـان يعـل * ، والثلاثيـة المضاعفة، مثل ما رواه ابن السراج[2] : "زعم يونس أنهم يقولـون: كـع يكُـع. قـال سيبويه: يكِع أجود. وهو كما قال"، والثلاثية المعتلة مثـل قـول الفـراء[3] : "أنشـدنا يونس النحوى :

رب حلم أضاعه عدم المـا ل ، وجهل غَطَى عليه النعيم

بتخفيف غطى"، والأفعـال المضارعـة مـن الثلاثـى مثـل التـى حكاهـا عنـه الصغـانى فـى الشوارد: "ينثِر ما فى الجراب: مثل ينثُر .. يخطِر ببالى: لغة فى يخطُر. عَلُن الأمر: لغة فـى علَن وعلِن"، والأفعال المزيدة مثل ما جاء فى الشوارد: "وتَـرت الصـلاة ووترتهـا: مثـل أوترتها .. حشَّمته: أغضبته، مثل حشَمته وأحشمته .. أحلأت السويق: مثل حلأته" .

ونجد منها المصادر مثل ما جاء فى الشوارد: "مصدر ألا – أى قصَّر – ألْـو – وأُلُـوّ .. الأُبو: الأبوة .. قدمت البصرة قِدْمانا: أى قدوما"، والجموع مثل آخاء التى رواهـا ابـن جنى[4] ، وما جاء فى الشوارد[5] : "اللؤمان: اللئام .. يقال فى جمع سـقب الناقـة: سُـقْبان، وفى جمع سقب البيت – وهو عموده: سِقْبان. يجمع الجدى جِدْيانا"، والأسماء مثل ما رواه ابن دريد[6] : "قال يونس: القرطبى، مثل فعللى: الصرع على القفا. وأخبرنا أبو حـاتم عـن أبى عبيدة عن يونـس: شـهد أعرابيـان الجمعـة، فلمـا ركـع النـاس وجعلـوا يتـأخرون قـال

---

(١) إصلاح المنطق ٢١٥ . العين مفتوحة .

(٢) الحلل ٦١ ظ . الكاف مفتوحة واستجاد سيبويه كسرها .

(٣) السيرافى: أخبار النحويين البصريين ٢٨. وانظر ابن ولاد: المقصور والممدود ٨١ .

(٤) الخصائص ١ : ٣٣٨ . سر الصناعة ١ : ١٦٦ .

(٥) وانظر ابن السكيت: اصلاح المنطق ٤١٣ .

(٦) الجمهرة ٣ : ٤٦١ . القاف مكسورة والراء ساكنة والباء مشددة مفتوحة .

أحدهما لصاحبه: اثبت فإنها القرطبى" وما رواه الصغانى: "العِلّى: العلة" .

ونجد منها الصفات كالتى وردت فى الشوارد: "المصياف: الذى لا يتزوج حتى يشمط .. هذا الأمر صُغْران حُقْران، أى صغير حقير .. إناء ثَلْثان: إلى الثلث، كالنصفان: إلى النصف" .

وتتعدد الأسباب التى تجعل هذه الألفاظ غريبة، ولكنها جميعا تؤول الى عدم قياسيتها. فقد كان منها ما خضع لابدال أو إعلال غير قياسى، مثل قوله[1]: "مضيت على الأمر مضوا، وهذا الأمر ممضوّ عليه" وقوله فى الشوارد: "الامتطال: الانتطال .. التحليل: الاحليل .. يَتِم ياتم: مثل ييتم"، وما لم يعل على حين كان واجبا إعلاله مثل قوله فى الشوارد: "أجويت القدر – وهذيل تقول: أجييتها – : أى غلفتها" ، وما خضع لقلب غير قياسى مثل قوله فى الشوارد: "أَمْق للعين: مَأقها .. امرأة مُفاضة: أى مفضاة. وأفاضها: أى أفضاها"، وما خضع لحذف غير قياسى مثل قوله فى الشوارد: "المضرح: المضرحى، كالقطام للقطامى". فلان مضلع لهذا الأمر: أى مضطلع، وكذلك مطلع" .

وكان منها المشتقات غير القياسية، إذا أخذت من علم مثل قوله فى الشوارد[2] : "اختاف: أتى خيف منى، كأخاف وأَخْيف، مثل امْتَنى: إذا أتى منى"، أو أخذت من اسم مثل قوله فى تهذيب الألفاظ[3] : "تقول العرب: امرأة معجزة: يعنون ضخمة العجيزة"، وقوله فى النوادر[4] : فاكه من الفاكهة، مثل لابن وتامر" وقوله فى الجمهرة[5] : "تقول

---

(١) إصلاح المنطق ٣٧٠ . الميم مضمومة والواو مشددة .

(٢) وانظر إصلاح المنطق ٣٤١، وتهذيب الألفاظ ٤٨٦، وشرح القصائد السبع الطوال ٥٣٥ .

(٣) ٣١٨ . الجيم مشددة مكسورة .

(٤) المزهر ٢ : ٢٧٥ .

(٥) ٣ : ٩٥ .

العرب: فلان أضيع من فلان: أى أكثر ضياعا منه. ولم يقله غيره" .

وآن الأوان لأترك صورة الألفاظ، وألتفت إلى معناها، وأتتبع الأمور التى عالجها ونبه عليها فى هذا الجانب. وإذ نفعل نرى أنه فطن الى أن بعض الألفاظ استخدمت للدلالة على معان معينة مدة من الزمان ثم أهملت لسبب ما فلم يعد الناس يستخدمونها، وعدّ هذا النوع من الألفاظ ميتا. قال ابن دريد[1] : "الغطر: فعل ممات، يقال: مر فلان يغطر بيديه: مثل يخطر سواء، هكذا يقول يونس" .

وقال أبو عبيدة[2] ليونس حين أنشده شعر الأسدى :

ومركضة صريحى أبوها　　　تهان له الغلامة والغلام

أفتقول للجارية غلامة؟ قال: لا ، هذا من الكلام المتروك وأسماؤه زالت مع زوال معانيها كالمرباع والنشيطة، وبقى الصفايا" .

وأورد المعانى غير المعروفة للألفاظ الشائعة فى معان أخرى. قال ابن دريد[3]: "سرق الشىء: اذا خفى. هكذا يقول يونس، وأنشد:

وتبيت منتبذ القذور كأنما　　　سرقت بيوتك أن تزور المرقدا

كأنما سرقت: أى خفيت". ولكنه لم يفعل ذلك حبا للغريب لذاته، بل كان يجعل معنى الشعر هو الحكم، فان اقتضى المعانى الغريبة أوردها، وإلا رفضها رفضا باتا، قال أبو عبيدة[4]: "قدم جعفر بن سليمان العباسى من عند المهدى الخليفة. فبعث إلى يونس بن حبيب فقال له: أنا وأمير المؤمنين اختلفنا فى هذا البيت:

---

(١) الجمهرة ٢ : ٣٦٩ .

(٢) الجاحظ: الحيوان ١ : ٣٢٩ .

(٣) الجمهرة ٢ : ٣٣٤ .

(٤) ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

والشيب ينهض فى السواد كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

فما الليل والنهار؟ فقال يونس: الليل الليل الذى تعرف، والنهار النهار الذى تعرف. فقال: زعم المهدى أن الليل فرخ الكروان، والنهار فرخ الحبارى". وعقب أبو عبيدة على الخبر بقوله: "القول فى البيت ما قاله يونس، والذى قاله المهدى معروف فى الغريب من اللغة" .

وعنى بالمترادفات فأورد مجموعة منها كما كان يفعل أصحاب كتب النوادر واللغات والرسائل اللغوية على الموضوعات. قال ابن دريد[1]: "قال يونس: تقول العرب: فطر ناب البعير، وشقا نابه، وبقل، وبزغ، وصبأ: بمعنى واحد". وروى أبو عبيدة عنه[2]: "رجل لباب ومصاص وخيار، ويقال للاثنين والجميع على هذا اللفظ، لا يثنى ولا يجمع".

وكان يمحص الألفاظ قبل أن يحكم عليها بالترادف، فان وجد بينها أدنى خلاف أخرجها من حظيرة الترادف. قال التبريزى[3]: "قال يونس: الفقير: يكون له بعض ما يقيمه. والمسكين: الذى لا شيء له . قال الراعى :

أما الفقير الذى كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد

وقلت لأعرابى: أفقير أنت أم مسكين؟ فقال: لا وا لله بل مسكين" .

ووجد مجموعة من الألفاظ تتقارب معانيها أو تترابط أو تتواصل، فأتى بها فى الموضع الواحد، وكشف ما بينها من تقارب وتباعد حتى تتضح معانيها كل الوضوح. قال السيرافى[4] : "قال يونس: تقول العرب: الآل: من غدوة الى ارتفاع

(١) الجمهرة ٣ : ٤٦٠ .

(٢) شرح النقائض ٤٦٨ .

(٣) تهذيب الألفاظ ١٥ . شرح ابن الأنبارى على المفضليات ٢٣٥ .

(٤) أخبار النحويين البصريين ٢٩ . نزهة الألباء ٣٢ .

الضحى الأعلى، ثم هو سراب سائر اليوم. وإذا زالت الشمس فهو فيء، وغدوة: ظل. وأنشد لأبى ذؤيب :

لعمرى لأنت البيت أكرم أهله وأقعد فى أفيائه بالأصائل

.. وكان كذا وكذا الليلة، تقول ذاك إلى ارتفاع الضحى، وإذا جاوز ذاك قالوا: كان البارحة". وقال ابن دريد[1] : "قال يونس: تزوج فلان فى شرية نساء: يريد حيا تلد نساؤهم الإناث. وتزوج فى عرارة نساء: يريد حيا تلد نساؤهم الذكور" .

ولم يقصر يونس جهوده اللغوية على اللفظ المفرد بل تعداه إلى العبارة المركبة، التى شعر بغرابتها وأنها لا تسير على النحو الشائع من العبارات ذات المعنى الغريب أو الخاص أو الأدبى. قال السيوطى[2] : "قال يونس: تقول العرب للرجل إذا لقى شرا: ثبت لبده، يدعون بذاك عليه، والمعنى دام ذلك عليه". وقال سيبويه[3] : "ذو صباح: بمنزلة ذات مرة، تقول: سير عليه ذا صباح. أخبرنا بذلك يونس عن العرب" وقال التبريزى[4] : "عن يونس: كسر فى ذلك أربا: إذا طمع فيه". وقال ابن السكيت[5] : "قولهم (لا دريت ولا أتليت) يدعو عليه بأن لا تتلى إبله أى لا يكون لها أولاد، عن يونس .. قال يونس: يقال: ما ثملت شرابى بشىء من طعام، ومعناه ما أكلت – قبل أن أشرب – طعاما، وذلك يسمى الثميلة" .

---

(١) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .
(٢) المزهر ٢ : ٢٦٨ .
(٣) الكتاب ١ : ١١٥ .
(٤) تهذيب الألفاظ ٤٣٨ .
(٥) إصلاح المنطق ٣٥٥ ، ٣٩٤ .

ونجد بينها ما عرفه اللغويون باسم الاتباع، قال أحمد بن فارس[1]: "يونس: إنه شقيح لقيح". وقيل في الشوارد: "هذا الشر والبر: إتباع" .

ونجد بينها ما جاءته الغرابة من تثنية ما حقه الإفراد، قال سيبويه[2]: "قد يثنون ما يكون بعضا لشيء.زعم يونس أن رؤبة كان يقول: ما أحسن رأسيهما"، أو التذكير والتأنيث غير القياسيين، قال ابن سلام[3]: "سمعت يونس – وقيل له: ما يعني الراعي بقوله:

يبيت الحية النضناض منه   مكان الحب يستمع السرارا

قال يونس: الحب: القرط – أو قال: الشنف – والنضناض: الذي يخرج لسانه. قال يونس: يقولون: حية ذكر، ونعامة ذكر، وشاة ذكر، وبطة ذكر، ولم أسمعه منه". وجاء في الشوارد عنه: "ليلة مقمر: مثل مقمرة .. يقال: كثرت مال فلان، يؤنثون المال كما أنثوا القوم. قال الله تعالى: "كذبت قوم نوح المرسلين" .

ودخلت الغرابة على بعض العبارات من تعدية الفعل اللازم. جاء في الشوارد عنه: "مكرته: أي مكرت به .. وأمأه: أي أومأ إليه" .

ونخلص من دراسة ما وصل إلينا من أقوال يونس بن حبيب بأنه كان يعني باللفظ والعبارة. فعالج اللفظ من حيث صورته عندما تتعدد سواء بقي معناه واحدا أو تعدد، والصور غير الشائعة له إذ اطرأ عليها تغيير غير قياسي، وعالجه من حيث معناه المهجور، أو الباقي: المعروف منه وغير المعروف، والمترادفات، والمعاني المتقاربة

(١) الاتباع والمزاوجة ٣٥ ، ٣٧ ، ٧٤ .

(٢) الكتاب ١ : ٢٤١ .

(٣) الطبقات ٤٣٤ .

مع شيء من التباعد. وعالج العبارات المركبة، وخاصة ذات الصبغة الأدبية العالية، مع شيء من الغرابة .

وأدى به ذلك إلى الانفراد بكثير من الألفاظ، لم يشاركه أحد في روايتها عن العرب، كما رأينا ونرى في قول ابن جني[1]: "لم يأت فيما عينه ولامه من موضع واحد (فعلت) إلا حرفان فيما علمت، وهما لببت فأنت لبيب، حكاها يونس. قال لي أبو علي: قال أبو إسحاق: سألت عنها ثعلبا فلم يعرفها. وحكى قطرب: شررت، في الشر. وإنما تجنبوا (فعلت) بالضم في المضاعف استثقالا للضمة مع التضعيف. فأما حبذا فأصلها لعمري حَبُب إلا أنها لما لزمت الادغام فلم يظهر تضعيفها احتملت لذلك. وقد قالوا أيضا: دُممت فأنت تدم دمامة". وزاد ابن خالويه[2] إلى هذه الأفعال عززت الشاة: إذا قل لبنها .

ونستبين من هذه الأقوال أن منهج يونس كان يعتمد على رصد هذه الظواهر التي تخضع لها الألفاظ والعبارات العربية، لأنه عدها من الظواهر اللغوية. فما هذه الغرابة التي تتسم بها إلا لكونها ليست على اللغة الشائعة، وانما اللغات القبلية الأخرى. وقد أكثر من الاشارة الى أن ما يتحدث عنه "لغة" دون أن يبين إلى أية قبيلة تنتمي. ولكنه فعل ذلك في بعض الأحيان، فأبان أنه عنى بلغة تميم والحجاز وأهل العالية وهذيل ويربوع (من بطون تميم) واليمامة وسليم .

وأعلن أنه يورد بعض ما يقول عن أستاذيه أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر، وعن مصدره الرئيسي رؤبة،وأخذ بعضه الآخر عن الأعراب.قال أبو عمر[3]:

---

(1) شرح المنصف ١ : ٢٤٠ . انظر المزهر ٢ : ٩٤ . يريد وزن كرم .

(2) كتاب ليس ٢٦ .

(3) شرح المنصف ٣ : ١٨ .

"سمعت يونس سأل أعرابيا .. فقال الأعرابي: كان أبي يقول: إني لأبغض الامعة من الرجال. فقالوا له: ما الامعة؟ فقال: الذى يقول: من يذهب حتى أذهب معه" .

والحق إن يونس نفسه كان يميل إلى إيراد ما يورد مـن ألفـاظ وتفسـيرات فـى شكل إخبارى أو حوارى، وكأنما وقعت بينه وبين الأعراب أحداث فعلا، وفى ظنـى أن كثيرا منها من تخيله. قال[1]: "صنع رجل لأعرابـى ثريـدة ليأكلهـا، فقـال لـه: لا تسقعها ولا تشرمها ولا تقعرها. قال له: فمـن أيـن آكـل لا أبـالك؟ قـال: كـل مـن جوانبهـا. معنـى تسـقعها: تقشـر أعلاهـا. وتشـرمها: تخرمهـا. وتقعرهـا: تـأكل مـن أسفلها". وقال الأصمعى عن يونس[2]: "سمعت أعرابيا يذكر مصدقا لهم فـى كلامـه قال: فلمقه بعد ما نمقه: أى محاه بعد ما كتبه" .

فهو يحس أن ذلك يقرب الألفاظ، ويحبب الطلبة فيها، وييسر حفظها. بل إنـه ليروى الطرف التى لا تحتوى على الغريب ولكنها تحبب فيه. قال[3]: "كان جبلة بـن عبد الرحمن يخرج إلى طباخـه الرقـاع يسـتدعى بهـا الطعـام، وفيهـا الألفـاظ الغريبـة الحوشية، فلا يدرى الطباخ ما فيها حتى يمضى بهـا الى ابـن أبـى إسـحاق ويحيـى بـن يعمر وغيرهما يفسرون ما فيها مـن الألفـاظ. فـاذا عـرف الطبـاخ مـا فيهـا أتـاه بما استدعاه. فقال له يوما: ويحك إنى أصوم معك. فقال له الطباخ: سهل كلامك حتى يسهل طعامك. فيقول: يا ابن اللخناء أفادع عربيتى لعيك" .

---

(١) ذيل الأمالى ١١٩ . مجالس ثعلب ٨ ، ٢٦ . المزهر ١ : ١٥٢ . المخصص ٥ : ١٢ . اللسان ١٠ : ٦٩، ١٥ : ٢١٤ .

(٢) الجمهرة ٣ : ١٦٣ . أبو الطيب: الأضداد ٦٤٩ .

(٣) ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

وتبين لنا أن يونس كان يمحص الألفاظ قبل أن يحكم عليها. ولم يكن يـأبى أن يعلن توقفه عندما يعجز عن بلوغ رأى يطمئن إليه فـى لفـظ مـا.قـال ابـن سـلام[1]: "سألت يونس عن قول ا لله جل وعز * كى لا يكون دولة * فقال: قـال أبـو عمـرو ابن العلاء: الدولة فى المال، والدولة فيالحرب. قال: وقال عيسى بن عمر: كلتاهما فى الحرب والمال سواء. قال: أما أنا فوا لله ما أدرى ما بينهما" .

وبلغ من تمحيصه للألفاظ التـى يدرسـها أن أنكـر مجموعـة وصلـت إليـه ممـن يجلهم من الأعراب، وأخذ علـى رؤبـة وأبيـه اشـتقاقات اشـتقاها علـى غـير القيـاس عنده، حتى ضاق به رؤبة، وقال له مـا ذكرتـه سـابقا. ونقـد ألفـاظ بعـض الشـعراء الذين أثنى عليهم. قال أبو الفرج[2]: "سمعت ابن الأعرابى يقـول: سـئل يونـس عـن قول ابن قيس الرقيات:

ما مر يوم إلا وعندهما   لحم رجال أو يالغان

فقال يونس: يجوز يولغان، ولا يجوز يالغان. فقيل له: فقد قال ذلك ابن قيـس الرقيات، وهو حجازى فصيح. فقال: ليس بفصيـح ولا ثقـة، شـغل نفسـه بالشـرب بتكريت" .

لا عجب إذن أن نرى يونـس يشـغل مرتبـة لا تقـل عـن مرتبـة أكـابر علمـاء اللغة، وأن يناقشهم، فيأخذ عليهم أشياء، وتؤخذ عليه أشياء. حدث محمد بن سـلام عنه أنه قال[3]: "النحويون يغلطون فى ثلاثة أشـياء: يقولـون فـى نكـاح أم خارجـة:

(١) إصلاح المنطق ١٢٩ . المزهر ٢ : ٢٩٩ . فى المال بضم الدال، والحرب بفتحها .

(٢) الأغانى ٥ : ٨٨ .

(٣) المبرد: الفاضل ١١٦ . الكامل ٤٠٧ .

خِطْب، فتقول: نِكْح، وإنما هو نكح، ويقولون: ابنة الخس، وإنما هو الأخس مثل الأرز، ويقولون: ليس لحاقن رأى، وانما هو ذهن" .

وخطأ أستاذه عيسى مرة، قال محمد بن سلام[1]: "قلت ليونس بن حبيب: إن عيسى بن عمر قال: صحف أبو عمرو بن العلاء فى الحديث: (اتقوا على أولادكم فحمة العشاء) فقال بالفاء وإنما هى بالقاف. فقال يونس: عيسى الذى صحف ليس أبا عمرو، وهى بالفاء كما قال أبو عمرو لا بالقاف كما قال عيسى" .

وخطأ أستاذه أبا عمرو فى مرة أخرى. قال ابن سلام[2]: "قال لى يونس بن حبيب: كان عيسى بن عمر يتحدث فى مجلس فيه أبو عمرو بن العلاء. فقال عيسى فى حديثه: ضربه فحشت يده، بالضم. فقال أبوعمرو: ما تقول يا أبا عمرو؟ فقال عيسى: فحشت يده. قال أبو عمرو: فحشت يده. قال يونس: والتى رده عنها جيدة، يقال: حشت يده بالضم، وحشت بالفتح، وأحشت" .

وأزال عدة ظنون بالخطأ كانت تدور حول أبى عمرو[3] .

ولكنه لم يسلم مما يؤخذ عليه. فقد سبق أن رأينا تلميذه سيبويه[4] يضعف الصيغة التى رواها فى الفعل يكع. كذلك خطأه تلميذ آخر له فى أحد الأفعال أيضا. قال أبو حاتم[5]: "قال لى أبو زيد الأنصارى: سألنى الحكم بن قنبر عن تعاهدت ضيعتى أو تعهدت، فقلت: تعهدت، لا يكون إلا ذلك. فقال لى: فاثبت لى

---

(١) المزهر ٢ : ٣٦٠ .

(٢) مجالس العلماء ١٥٧ .

(٣) العسكرى ٧٤ . أبو الطيب ١٩ . المزهر ٢ : ٣٩٩ .

(٤) ابن السراج ٦١ ظ .

(٥) السيرافى ٤٢ .

على هذا اذا سـألك يونـس فقـل نعـم. وكـان الحكـم بـن قنـبر سـأل يونـس فقـال: تعاهدت. فلما جئت سأله، فقال يونس: تعاهدت، فقلت: لا . وكان عنده ستة مـن الأعراب الفصحاء فقلت: سل هؤلاء. فبدأ بالأقرب إليه فـالأقرب، فسـألهم واحـدا واحدا، فكلهم قال: تعهدت. فقال: يا أباز زيد، رب علم كنت سببه، أو شـيئا نحـو هذا". وعاب عليه أبو زيد أيضا اتساعه في اللغات[1].

ولكن ذلك لا يجعلنا نغـض مـن مكانـة يونـس، التي اعـترف بهـا أهـل اللغـة أنفسهم. قال بعض الأعراب له[2] وقد استحسن جوابا له: قضيـت لـك بالفقـه، أي الفطنة. وروى يونس[3]: "سألني جندل بن عبيد الراعي: ما معنى قول الراعي:

يبيت الـحيـة النضناض مـنـه ... مكان الحب يستمع السرارا

ما الحب؟ فقلت: القرط. فقال: خذوا عن الشيخ فانه عالم" .

بل ساوى بعض العلماء بين يونس وأبي زيد نفسه. قال المبرد[4]: "كان يونس من باب أبي زيد في العلم باللغات". ويكفي للتدليل على دلالة هـذا الحكـم ومـداه أن أورد القـول التـالي، الـذي كـان شـائعا فـي أوسـاط البصـرة عـن لغوييهـا. كـان يقال[5]: "كان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة، وأبو زيد ثلثـي اللغـة، والخليـل بـن أحمـد نصف اللغة، وعمرو بن كركة الأعرابي يحفظ اللغة كلها" .

---

(١) الزبيدي: الطبقات ١٨٢ .

(٢) شرح القصائد السبع الطوال ٢٩٥ .

(٣) ابن دريد: الاشتقاق ٣٨ .

(٤) السيرافي ٤١ . النزهة ٨٦ . الفهرست ٥٤ .

(٥) السيوطي: البغية ٢٥٤ .

النحو

إن أردنا أن نطلق على يونس بن حبيب لقبا علميا واحدا لا نعدوه، لم نحتر، ولم نكثر البحث، فقد كفانا تلاميذه مؤونة ذلك، واقتصروا على تلقيبه بالنحوى .

وإذ كان الأمر كذلك، وكان الرجل من المؤلفين، كنا نتوقع أن يخلف لنا كتابا أو أكثر، يدون فيه معارفه وآراءه النحوية. ولكن ذلك لم يكن، فان كتبه التى نعرف عناوينها تستهدف اللغة أكثر من النحو. ويبدو أنه شابه معاصره الخليل بن أحمد فى الاقتصار على تدريس النحو ومناقشة التلاميذ وعدم التدوين فكانت النتيجة عند الرجلين واحدة: أن آراءهما النحوية لم تصل إلينا إلا عن طريق تلميذ نابه، عنى بالنحو كل العناية، وسعى إلى إبانة آراء السابقين، وتدوينها، ومناقشتها، أعنى سيبويه فى الكتاب. فنحن لا نعرف مصدرا لآراء يونس غير الكتاب. وكان القدماء أنفسهم يشكون فى كل رأى ينسب إلى يونس، ما لم يكن مستقى من الكتاب. فقد روى المبرد فى المقضتب رأيا عزاه ليونس، فبحث عنه على بن عيسى الرمانى فى الكتاب. وعندما لم يعثر عليه، عقب عليه قائلا[1]: "ما أدرى من أين لأبى العباس هذه الحكاية عن يونس؟!" .

فالمصدر الرئيسى لما أنقله فى هذا الفصل من آراء يونس، بل المصدر الوحيد، كتاب سيبويه، ثم أرفده بما أجده من مناقشات فى غيره من كتب النحو .

ويبدو أن سيبويه أكثر من الأخذ عن يونس، وكان يرفع من قدره، فأكثر من النقل منه فى الكتاب، حتى ناهزت المرات التى ذكر اسمه فيها مئتى مرة[2]. وطبيعى

---

(١) مازن المبارك: الرمانى النحوى ١٤٦ .

(٢) مهدى المخزومى: الخليل بن أحمد ٢١٩ . على النجدى ناصف: سيبويه ٩٠ .

أن لا تكون هـذه المرات ممثلة لجهد يونس النحوى كله، لأن الطبيعى ألا يشير سيبويه إلى اسمه إلا حين يشذ أو يخالف غيره أو ينفرد أو يأتى بأمر يستحق التنويه .

ونحن عندما ننظر فيما رواه سيبويه عن يونس بعد استقصائه نجد فيه ظواهر عدة، تيسر علينا تصنيفه أصنافا مختلفة. وإذ كان المهم فى نظرنا أن نبرز جهد يونس الخاص، الذى يدل على تفكيره الذى انفرد به عن غيره، فإننى ألجأ الى ما يساعد على ذلك من تصنيف .

فأجد أول ما أجد مجموعة من الآراء النحوية تحدث بها يونس حقا، ولكنها ليست من ابتكاره، وإنما من ابتكار أحد شيوخه. فيونس راوية لا مبدع لها، وإن كان اقتصاره على روايتها دون التعقيب عليها يدل على أنه مرتض لها. ولكن دلالتها عليه ثانوية، ولذلك أكشف عنها، وأورد أمثلتها، دون أن أطيل فى مناقشتها واستنطاقها .

وأقدم من روى عنه من شيوخه عبد الله بن أبى أسحاق، الذى تتبع أخباره مع الفرزدق خاصة. وأمثل لما رواه عنه بقوله[1]: "فإن سميت المؤنث بـ "عمرو" أو "زيد" لم يجز الصرف، هذا قول أبى إسحاق وأبى عمرو، فيما حدثنا يونس" .

وقال الأستاذ على النجدى ناصف[2]: "أما جملة ما نقل سيبويه عن ابن أبى إسحاق فكانت أربعا كلها من النحو والاستشهاد له، وسنده فى الرواية هنا يونس، كما كان سنده هناك فى الرواية عن أبى عمرو" .

وهذا القول فيه تعميم جائر. فليس صحيحا أن كل ما رواه سيبويه عن ابن

---

(١) الكتاب ٢ : ٢٣ .

(٢) سيبويه ٩٦ .

أبى إسحاق كان عن طريق يونس. فان سيبويه أورد نقلين عنه مهملين، دون أن يلتفت أدنى التفات إلى من أخذهما عنه[1]، وأورد نقلا ثالثا مكتفيا بكلمة مبهمة تبين أنه لم يأخذه عن الرجل مباشرة، قال[2]: "ولو قلت: إياك الأسد، تريد من الأسد، لم يجز كما جاز فى (أن) إلا أنهم زعموا أن ابن أبى اسحاق أجاز هذا البيت فى شعر :

إياك إياك المراء فانه   إلى الشر دعّاء وللشر جالب

كأنه قال: إياك، ثم أضمر بعد إياك فعلا آخر فقال: اتق المراء" .

كذلك يوجد فى الكتاب نقول كثيرة تحوى أقوالا لأبى عمرو بن العلاء، أخذها سيبويه عن يونس، مثل قوله[3]: "زعم يونس أن أبا عمرو كان يقول: دارى من خلف دارك فرسخان، يشبه بقولك: دارك منى فرسخان، لأن (خلف) ها هنا اسم، وجعل (من) فيها بمنزلتها فى الاسم" .

ولكننى لا أستطيع هنا أيضا أن أعمم القول بأن سنده فى الرواية عن أبى عمرو هو يونس وحده، كما قال الأستاذ على النجدى ناصف، وأعتمد فى ذلك على ما قاله هو فى كتابه[4]: "وقد نقل سيبويه عن أبى عمرو ٤٤ مرة، يذكر فى أكثرها أن الرواية عن يونس، ويضمر فى أقلها السند أو يغفله جملة"، وما قاله أيضا[5]: "يقولون إن سيبويه أخذ الحروف عنه (يريد عن أبى عمرو). وفى الكتاب

---

(١) الكتاب١ : ٢٥٦ ، ٤٢٦ .

(٢) الكتاب ١ : ١٤١ .

(٣) الكتاب ١ : ٢٠٨ .

(٤) سيبويه ٩٤ .

(٥) سيبويه ٩٥ .

دليل على ذلك" . فان أقواله هذه تجعلنى لا أؤيـده فـى قولـه السـابق ولا فـى قولـه الآتى[١]: "أما النحو فـالراجح أنـه لم يـأخذه عنـه، فلـم أر أحـدا ذكـره، وليـس فـى الكتاب دليل عليه" .

وأتى سيبويه ببعض الأقوال، التى أعلن أن أبا عمرو والخليـل ويونـس أتفقـوا عليها. جاء فى الكتاب[٢]: "إذا لقبت مفردا بمفـرد أضفتـه الى الألقـاب، وهـو قـول أبى عمرو ويونس والخليل، وذلك قولك: هذا سعيد كرز، وهذا قيس قفة قد جـاء، وهذا زيد بطة .. فاذا لقبت المفرد بمضاف، والمضـاف بمفـرد، جـرى أحدهمـا علـى الآخر كالوصف، وهو قول أبى عمرو ويونس والخليل، وذلك قولك: هذا زيد وزن سبعة، وهذا عبد الله بطة .. " .

ولم يصرح سيبويه: هل أخذ هذه الآراء من فم أبى عمرو أو من أحد تلاميذه. ولكن شهرتها وتداولها بين أكثر من تلميذ من تلاميذ أبى عمرو يجعلنا نرجح معرفـة يونس بها، وبصدورها عن شيخه، ونرجح أن قوله هذا لا يعدو أن يكون ترديدا لمـا قال شيخه أمامه، وموافقة عليه .

وأورد سيبويه مجموعة مـن أقـوال شـيخيه: عيسـى بـن عمـر، وأبـى الخطـاب الأخفش، وكشف أن يونس قال له ما يوافقها. جاء فى الكتاب[٣]: "قد يقول بعض العرب: ارمْ، فى الوقف، واغزْ، واخشْ، حدثنا بذلك عيسى بن عمر ويونس. وهذه اللغة أقل اللغتين. جعلوا آخر الكلمة حيث وصلـوا الى التكلـم بهـا بمنزلـة الأواخـر التى تحرك مما لم يحذف منه شىء، لأن من كلامهم أن يشبهوا الشـىء بالشـىء وإن لم

(١) سيبويه ٩٥ .
(٢) الكتاب ٢ : ٤٩ . وانظر ٧ ، ١١ .
(٣) ٢ : ٢٧٨ .

يكن مثله في جميع ما هو فيه". وجاء أيضا[1]: "ما يجوز فيه الرفع مما ينتصب في المعرفة، وذلك قولك: هذا عبد الله منطلق، حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عمن يوثق به من العرب" .

والظاهر من كلام سيبويه أن كلا من الرجلين ذكر له رأيه على حدة. يؤكد لنا ذلك قول سيبويه في نقل آخر[2]: "يقوى ذلك أن يونس وعيسى جميعا زعما .." وقوله[3] زعم أبو الخطاب أن العرب الموثوق بهم يقولون: أنا هذا، وهذا أنا .. وحدثنا يونس أيضا تصديقا لقول أبي الخطاب: أن العرب تقول: هذا أنت تقول كذا وكذا، لم يرد بقوله: هذا أنت، أن يعرفه نفسه كأنك تريد أن تعلمه أنه ليس غيره، هذا محال، ولكنه أراد أن ينبهه كأنه قال: الحاضر عندنا أنت، والحاضر القائل كذا وكذا أنت" .

وإذن فلم يكن يونس هو الذى نقل هذه الأقوال الى سيبويه، بل سمعها سيبويه من أفواههم في غالب الظن. ولكن الرجلين كانا شيخين ليونس، فهل سمع هو أيضا هذه الأقوال منهما. إن كان الأمر كذلك، كان ما رواه سيبويه عنه مجرد اتفاق مع ما سمعه من شيخه. وإلا فهو رأى خاص ليونس، اتفق مع آراء الرجلين. ولا شك أن من العسير أن نؤكد أحد الظنين، وإن كان الظن الأول أقرب الى الاحتمال .

وننتهي بهذا من الأقوال التى أعلن سيبويه أن يونس رواها له عن واحد من شيوخه، والتى رجحنا أنها كذلك، والتي يوجد احتمال أنها ليست من ابتداع الرجل. وننتقل الىهذا النوع الأخير من الأقوال، أو التى تدل ظواهر الأمور أنها

---

(1) ١ : ٢٥٨ .

(2) ١ : ١٨٢ .

(3) ١ : ٣٧٩ .

منه، إذ أننا لا نملك الدليل القاطع هنا أيضا أن يونس لم يكن مجرد راوية لهذه الأقوال أو بعضها غير أنه أغفل اسم الشيخ الذى يروى عنه. وكثيرا ما فعلوا ذلك. ومهما يكن من أمر، فنحن مضطرون الى الاعتماد على ما عندنا من أقوال، مهما كانت الأمور التى تشوبها. وانما ألجأنا الى ذلك يونس نفسه اذ لم يعن باصدار كتاب يحفظ لنا أقواله. ولما كنا قد بدأنا الحديث بما رواه عن شيوخه، كان واجبا علينا أن نستمر فيه، ونبين أن الرجل لم يلغ شخصيته أمامهم، وتقبل كل ما قالوا دون تمحيص أو مناقشة. بل كل الدلائل تدل أنه كان يمعن الفكر فيما يسمع، وأن هذا الفكر كان يؤدى به كثيرا الى الموقف المستقل.

وكما بدأنا بما رواه عن عبد الله بن أبى اسحاق آنفا، نبدأ هنا بما خالفه فيه. ويبدو أن إعجاب يونس بالفرزدق جعله يعارض شيخه فى موقفه منه أو لا يتابعه فيه على الأقل، وخاصة أن الصلة بين الشيخ والتلميذ لم تدم طويلا فيما يبدو، أو لم تشتد أواصرها. فتوقف مرة، موافقا فى ذلك شيخه الآخر الذى كان يحترمه كل الاحترام. قال ابن سلام[1]: "قال يونس: وقال ابن أبى أسحاق فى بيت الفرزدق:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجرف

.. قال أبو عمرو بن العلاء: لا أعرف لها وجها. وكان يونس لا يعرف لها وجها. قلت ليونس: لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه. فقال: لا، كان ينشدها على الرفع، وأنشدنيها رؤبة بن العجاج على الرفع".

وعارض يونس ابن أبى إسحاق فى مرة أخرى، إذ اهتدى الى وجه من التعليل لم يفطن إليه شيخه، قال ابن سلام[2]: "أخبر يونس أن ابن أبى إسحاق قال

(١) الطبقات ١٩. الموشح ١٠١.

(٢) الطبقات ١٦. الموشح ٩٩.

للفرزدق فى مديحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام – تضربنا ... بحاصب كنديف القطن منشورِ

على عمائمنا يلقى وأرحلنا ... على زواحف تزجى، مخها ريرِ

قال ابن أبى إسحاق: أسأت، انما هى (رير)، وكذلك قياس النحو فى هذا الموضع. وقال يونس: والذى قال جائز حسن .." ذهب يونس إلى وقوع تقديم وتأخير، والترتيب الطبيعى للعبارة: رير مخها .

وتعطينا هذه المعارضة واحدة من الخصائص التى تفرق بين الرجلين. فقد وضح أن ابن أبى إسحاق كان يسرع إلى تخطئة المتكلم مهما كانت فصاحته، وكان نقاؤه العربى. أما يونس فيظهر غير ذلك، بل يبحث عن المنافذ التى تجعله يحكم بالسلامة أولا، فإن عجز عن العثور عليها، توقف حائرا، ولم يهرع إلى التخطئة .

وفى كتاب سيبويه مواضع تدل على أن يونس عارض أستاذه فى غير شعر الفرزدق، وفى آراء لم ينفرد بها بل تابعه فيها بعض أئمة النحو. جاء فى الكتاب[1]: "ومن هذا الترحم. والترحم يكون بالمسكين والبائس ونحوه ولا يكون بكل صفة ولا كل اسم، ولكن ترحم بما ترحم به العرب. وزعم الخليل أنه يقول: مررت به المسكينِ، على البدل، وفيه معنى الترحم. وبدله كبدل: مررت به أخيك .. وكان الخليل يقول: إن شئت رفعته من وجهين، فقلت: مررت به البائسُ، كأنه لما قال: مررت به، قال: المسكين هو، كما يقول مبتدئا: المسكين هو، والبائس أنت. وإن شاء قال: مررت به المسكينَ .. وفيه معنى الترحم كما كان فى قوله: رحمة الله عليه، معنى رحمه الله. فما يترحم به يجوز فيه هذان الوجهان، وهو قول الخليل ..

---

(١) ١ : ٢٥٥ .

وأما يونس فزعم أنه ليس يرفع شيئا من الترحم على إضمار شيء يرفع، ولكنه إن قال: ضربته، لم يقل أبدا الا المسكينَ، يحمله على الفعل، وإن قال: ضرباني، قال: المسكينان، حمله أيضا على الفعل، وكذلك: مررت به المسكينِ، يحمل الرفع على الرفع، والجر على الجر، والنصب على النصب، ويزعم أن الرفع الذى فسرنا خطأ، وهو قول الخليل وابن أبى اسحاق" .

وروى سيبويه[1] واحدة من مسائل النعت السببى اختلف فيها يونس مع أستاذه عيسى بن عمر. فقد اتفق الاثنان على التفرقة فيه بين أنواع شتى. فرفعا ما كان غير منون دالا على علاج يُرى كالضارب والكاسر. أما الثابت غير الدال على علاج يرى كالآخذ والمخالط فاتفقا على نصبه إذا كان دالا على عمل واقع. ثم اختلفا فى غير الواقع منه فذهب عيسى إلى تبعيته لما قبله، ويونس إلى أنه مرفوع. وقد خالفهما سيبويه فذهب إلى أن الصفة الدالة على العمل تتبع ما قبلها فى الاعراب، سواء أكانت منونة مثل (مررت برجل مخالطٍ بدنه داء) أم غير منونة وأراد المتحدث معنى التنوين مثل (مررت برجل مخالطِه داء)، وسواء أكانت الصفة دالة على علاج يرى أم دلت على عمل ثابت ليس فيه علاج، وسواء أدلت على عمل واقع أم عمل غير واقع. وأورد من الأدلة ما أبطل كل حجة للرجلين .

ولم يقف يونس عند هذا بل خالف أقرب شيوخه إلى قلبه، وأعظمهم فى عينه: أبا عمرو بن العلاء. ولم يخالفه جاهلا برأيه، بل كان عارفا به وراويا له. جاء فى الكتاب[2]: "قال يونس: من صرف (هندا) قال: هذه هندٌ بنت زيد، فنون (هندا) لأن ذا موضع لا يتغير فيه الساكن ولم تدركه علة، وهكذا سمعنا من العرب.

---

(١) ١ : ٢٢٨ .

(٢) ٢ : ١٤٨ .

وكان أبو عمرو يقول: هذه هندُ بنت عبد الله، فيمن صرف. ويقول: لما كثر في كلامهم حذفوه كما حذفوا (لا أدرِ) و (لم يك) و (لم أبل) و (خذ) و (كُل) وأشباه ذلك، وهو كثير". ولم يتدخل سيبويه في القولين، مقتصرا على حكايتهما. ولعل السبب جواز الرأيين عنده، إذ روى كل من الرجلين عن العرب، فذكر أحدهما القاعدة العامة، وذكر الآخر ما يفعلونه على غير قاس للتخفيف .

وخالف يونس[1] أستاذه في النسب إلى الأسماء المعتلة الآخر بالياء أو الواو مع سكون ما قبلهما. فقد روى هو نفسه أن أبا عمرو كان يقول في النسب إلى ظبية: ظبيي. وخالفه وكان يقول في: ظبية: ظبوى، وفي دمية: دموى، وفي فتية: فتوى .

وقد فصل سيبويه المسألة فكشف عن جميع أركانها. فذكر أن هذه الأسماء إذا كانت خالية من تاء التأنيث اتفق جميع النحاة في النسب إليها، فقالوا في ظبي: ظبيي، وفي غزو: غزوى. وعلل سيبويه ذلك بأن حرف العلة في هذه الألفاظ جرى مجرى الألفاظ الصحيحة ولم يُعلّ. وعلله الرضي الاستراباذي[2] بحصول الخفة بسكون العين وصحتها وعدم ما يجرئ على التغيير .

فاذا اتصلت تاء التأنيث بها اختلف النحاة. إذ لم يفرق أبو عمرو بين الخالي من التاء والمتصل بها، وجعل النسب إلى ظبية: ظبيي، وإلى غزوة: غزوى، أيضا. وكان تعليق سيبويه على هذا الرأى أنه القياس، ولا ينبغي أن يكون القياس إلا هذا. وعلله بأننا عددنا الكلمة مثل الكلمات غير المعتلة، وهذه الكلمات لا يؤثر فيها وجود تاء التأنيث أو خلوها منها، فكذلك ما ماثلها من كلمات معتلة .

---

(١) الكتاب ٢ : ٧٤ . الخصائص ٢ : ١٠٦ .

(٢) شرح الشافية ٢: ٤٨ .

أما يونس فخالف بين الكلمة عند دخول التاء عليها، وقال إننا إذا نسبنا الى ظبية قلنا: ظبوى، وإلى فتية قلنا: فتوى، وإلى دمية قلنا: دموى، من اليائى، واذا نسبنا من الواوى إلى غزوة قلنا: غزوى، وإلى عروة: عروى، فلا فرق عنده بين الواوى واليائى .

وكان المعقب على الرأيين فى هذه المرة الخليل بن أحمد، فأعلن أن الأول أقيسهما وأعربهما. ولكنه لم يرفض رأى يونس جملة وتفصيلا، بل قبله فى الكلمات اليائية. وعللها بأنهم شبهوا فعلة بفعلة، وفعلة بفعلة، وفعلة بفعلة[1]، لأنك لو بنيت فعلة من بنات الواو لصارت ياء، فلو أسكنت العين على ذلك المعنى لثبتت ياء ولم ترجع إلى الواو، فلما رأوها متشابهة الأواخر جعلوا النسب إليها واحدا. واعتمد فيه أيضا على السماع من العرب إذ أنهم نسبوا إلى بنى البطية فقالوا بطوى .

وقصر الرضى الاستراباذى هذا التغيير على الثلاثى لأن مبناه على الخفة، فطلبت بقدر الإمكان، وعلى ما فيه التاء من الكلمات، لأن حذفهم التاء عند النسب جرأهم على تحريك الساكن، مع قصد التفرقة بين المذكر والمؤنث. فأجروا التغيير على الكلمات اليائية لتخف بقلب الياء واوا ثم حملوا الكلمات الواوية عليها طردا للباب .

ورفض الخليل رأى يونس فى الكلمات الواوية، وقال: لا أقول فى غزوة إلا: غزوى، وفى غدوة إلا غدوى. وعلل رأيه بأن فعلة وفعلة من الواوى لا تشبه فعلة وفعلة، وأن فعلة من الواوى إذا كانت واحدة فعل تكون بالياء، ولو لم تكن على فعل للزم الحرف الذى قبلها التحريك ولم تشبه غدوة، وإن أسكنت ما قبل الواو فى فعلة من الواوى الذى ليس واحده فعل فحذفت الهاء لم تغير الواو لأن ما قبلها

---

(١) الأوليان بفتح الفاء، والثانيتان بضمها، والثالثتان بكسرها، والعين الأولى فى كل مجموعة ساكنة وفى الثانية متحركة .

ساكن. واعتمد أيضا على السماع فذكر أن العرب حين نسبوا الى بنى جروة قالوا: جروى. ووافقه سيبويه فى رأيه هذا .

وزاد الاسترابادى علة أخرى تفرق بين اليائى والواوى من هذه الكلمات، قال: "ذوات الياء بتحريك عينها تنقلب ياؤها واوا، فتخف شيئا، وإن كان يحصل بالحركة أدنى ثقل، لكن ما يحصل بها من الخفة أكثر مما يحصل بالحركة أدنى ثقل، وأما ذوات الواو فيحصل بتحريك عينها ثقل من دون خفة" .

واختلف يونس[1] مع أستاذيه عيسى وأبى عمرو فى تصغير معتل العين واللام، وأدلى برأى فضله سيبويه على ما جاء به الرجلان. ذهب عيسى الى أن تصغير أحوى هو: أُحي، مصروفا. ولكن سيبويه خطأ هذا القول، وقال: "لو جاز ذا لصرفت (أصمّ) لأنه أخف من أحمر، وصرفت أرأس إذا سميت به ولم تهمز فقلت: أرسَ".

وذهب أبو عمرو الى أن تصغيره هو: أُحَيّ. فخطأه سيبويه أيضا وقال: "لو جاز ذا لقلت فى عطاء: عُطيٌّ، لأنها ياء كهذه الياء وهى بعد ياء مكسورة، ولقلت فى سِقاية: سُقيية، وشاوٍ: شُوىٌّ". أما يونس فذهب ألى أن تصغيره هو: أُحيُّ. فارتضى سيبويه هذا الرأى وعقب عليه قائلا: "هو القياس والصواب"، وعلل ذلك بقوله: "لأن هذه اللام (يريد لام الكلمة) إذا كانت بعد كسرة اعتلت واستثقلت فى .. غير المعتل. فلما كانت كسرة فى ياء قبلها ياء التحقير ازدادوا لها استثقالا فحذفوها .. ولا تصرفه لأن الزيادة ثابتة فى أوله، ولا يلتفت إلى قلته كما لا يلتفت إلى قلة يضع".

نتبين مما سبق أن يونس بن حبيب عنى بما كان لشيوخه من آراء لغوية ونحوية، فاحتفظ بها ورواها لتلاميذه. وتسود هذه المرويات الظواهر التى سادت مروياته فى

---

(١) الكتاب ٢ : ١٣٢ .

الحقول الأخرى. فقد كان أكثر إقبالا على أبى عمرو، وروايـة عنـه، واتفاقا معه. ففاق ما رواه عنه كل ما روى عن بقية شيوخه مجتمعين، بـل بلـغ أضعافه، وبـالرغم من إعجابه بعبد الله بن أبى اسحاق، وقف منه موقف النـد، وعارضـه فـى كثير مما قاله، معارضة مهمة، إذ تعتمد على نظرة كل من الرجلين إلى التراث العربى. ووقف من عيسى موقفا متوسطا، فلم يقلل من الرواية عنه ويكثر من الاعتراض عليـه كما فعل مع ابن أبى إسحاق، ولم يحتـف بـه احتفـاءه بـأبى عمـرو. أما روايته عـن أبى الخطاب الأخفش فمن القلة بحيث لا تيسر لنا سبيلا إلى تصور العلاقة بينهما .

وحان الوقت الآن لنضع يونس بين معاصريه، أو إن تحرينـا الدقـة: لنضعـه إلى جوار تربه الخليل بن أحمـد، ليلقى كـل منهمـا الضـوء علـى الآخـر، ويكشـف مـن جوانب شخصيته ما لا تكشفه دراسة الفرد على ضوء من شيوخه .

وأتبع النهج نفسه الذى اتبعته فى هذا الفصل كله. فأستهل الحديث بـالآراء التى اتفق فيها الرجلان. وقـد تبـين لنـا أنهمـا اتفقـا فـى بعـض الآراء التـى أخذاهـا منفردين أو مجتمعين عن شيخهما أبى عمرو. ولكن يتجلى من كتاب سـيبويه أنهمـا اتفقا أيضا فى كثير من الآراء، التى لايوجد دليل أو إشارة علـى أنهمـا تلقياهـا عـن شيخ لهما. مثـال ذلـك قـول سـيبويه[1]: "سـألت الخليـل ويونـس عـن نصـب قـول الصلتان العبدى:

أيا شاعرا لا شاعـر اليـوم مثلـه   جرير، ولكن فى كليب تواضع

فزعما أنه غير منادى، وانما انتصب على إضمار، كأنه قـال: يـا قـائل الشـعر شاعرا. وفيه معنى حسبك به، كأنه حيث نادى قال: حسبك به، ولكنه أضمره كما

(١) الكتاب ١ : ٣٢٨ ، وانظر ٣٧٢ .

أضمروا في قوله: تا لله رجلا، وما أشبهه" . وفي بعض الأحيان وقع الاتفاق بين الرجلين في النتيجة التي وصلا إليها. ولكننا لا نعرف العلل التي أدت بيونس إلى نتيجته، على حين كشف سيبويه عن علل الخليل. قال[١]: "هذا باب ما لا يجوز أن يندب، وذلك قولك: وارجلاه، ويا رجلاه. وزعم الخليل ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال. وقال الخليل إنما قبح لأنك أبهمت، ألا ترى أنك لو قلت: واهذاه، كان قبيحا لأنك إذا ندبت فانما ينبغي لك أن تفجع بأعرف الأسماء، وأن تختص فلا تبهم لأن الندبة على البيان .. " .

وفي بعض الأحيان أعلن اتفاق الرجلين، وأتى بالعلة مغفلة فلم يبين هل هي من عنده أو من عند أحد الرجلين أو من عندهما معا، ولعل الفرض الأخير أرجحها، قال[٢]: "هذا باب ما يكرر فيه الاسم في حال الاضافة، ويكون الأول بمنزلة الآخر، وذلك قولك: يا زيد زيد عمرو، ويا زيد زيد أخينا، ويا زيد زيدنا. زعم الخيل ويونس أن هذا كله سواء، وهي لغة للعرب جيدة. وقال جرير :

يا تيم تيم عدي لا أبا لكم   لا يلفينكم في سوأة عمر

.. وذلك لأنهم قد علموا أنهم لو لم يكرروا الاسم صار الأول نصبا، فلما كرروا الاسم توكيدا تركوا الأول على الذي كان يكون عليه لو لم يكرروا" .

والتزم سيبويه في أكثر الأحيان الأقوال التي اتفق عليها الرجلان، وعدها القياس لما تتعلق به من قواعد، إذ أن الكلام العربي الفصيح يندرج تحتها، والعلماء الثقات لا يختلفون معها. قال[٣] "أما ما جاء مثل تَوْلب ونهشل فهو عندنا من نفس

---

(١) الكتاب ١ : ٣٢٤ . وانظر ١ : ٤٦١ ، ٢ : ١٥٥ .
(٢) الكتاب ١ : ٣١٤، وانظر ٣٧٥ .
(٣) الكتاب ٢ : ٣ . وانظر ١ : ٤٧٤ ، ٢ : ١٣ ، ٤٢ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، ١٣٣، ٢٨٣ ، ٤١٠ .

الحرف مصروف، حتى يجيء أمر يبينه، وكذلك فعلت به العرب، لأن حال التاء والنون في الزيادة ليس كحال الألف والياء لأنهما لم تكثرا في الكلام زائدتين ككثرتهما، فان لم تقل ذلك دخل عليك أن لا تصرف نهشلا ونهسرا. فهذا قول الخليل ويونس والعرب". وقال[1]: ".. وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء".

وكان ينافح عن رأيهما ويدحض ما خالفه من آراء، كما فعل في الضمائر الواقعة بعد لولا، قال[2]: "إذا أضمرت الاسم فيه جُر، وإذا أظهرت رُفع. ولو جاءت علامة الإضمار على القياس لقلت، لولا أنت، كما قال سبحانه (لولا أنتم لكنا مؤمنين) ولكنهم جعلوه مضمرا مجرورا. والدليل على ذلك أن الياء والكاف لا تكونان علامة مضمر مرفوع . قال الشاعر :

وكم موطن لولاى طحت كما هوى   بأجرامه من قلة النيق منهوى

وهذا قول الخليل ويونس. وأما قولهم: عساك، فالكاف منصوبة. قال الراجز :

* يا أبتا علك أوعساكا *

والدليل على أنها منصوبة أنك إذا عنيت نفسك كانت علامتك (نى) قال عمران بن حطان :

ولى نفس أقول لها إذا ما   تنازعنى: لعلى أو عسانى

فلو كانت الكاف مجرورة لقال: عساى. ولكنهم جعلوها بمنزلة (لعل) فى هذا الموضع. فهذان الحرفان لهما فى الإضمار هذه الحال، كما كان للدن حال مع

---

(١) الكتاب ٢: ٤٢ .

(٢) الكتاب ١ : ٣٨٨. وانظر المسألة ٩٧ فى كتاب الإنصاف لابن الأنبارى ص٦٨٧. وفى الرمانى لمازن المبارك ٢٨٧ .

غدوة ليست مع غيرها، وكما أن لات إن لم تعملها فى الأحيان لم تعمل فيما سواها فهى معها بمنزلة ليس فاذا جاوزتها فليس لها عمل .. وزعم ناس أن الياء فى لولاى وعسانى فى موضع رفع، جعلوا لولاى موافقة للجر و (نى) موافقة للنصب كما اتفق الجر والنصب فى الهاء والكاف. وهذا وجه ردىء لما ذكرت لك، ولأنك لا ينبغى لك أن تكسر الباب وهو مطرد تجد له وجها، وقد يوجه الشيء على الشيء البعيد إذا لم يوجد غيره، وربما وقع ذلك فى كلامهم" .

فلا عجب إذن أن يعترف سيبويه من هذه المسائل التى اتفقا فيها. وقد اعترف بذلك فى أبواب من التصغير، فقال[1]: "وجميع ما ذكرنا قول يونس والخليل" وقال فى أبواب من النداء[2]: "اعلم أن كل شىء ابتدأناه فى هذين البابين أولا هو القياس، وجميع ما وصفنا من هذه اللغات سمعناه من الخليل ويونس عن العرب" .

وكان طبيعيا أن يختلف الرجلان فى بعض المسائل، وكل منهما على ما هو عليه من تفكير واجتهاد واستقلال بالرأى. وقد أورد سيبويه جملة من هذه المسائل التى اختلفا فيها. واقتصر فى قليل منها على دور الراوية، فلم يرجح واحدا منها على الآخر، إذ صح لديه القولان. قال[3]: "سألت الخليل عن قوله:

ألا رجلا جزاه الله خيرا ... يدل على محصلة تبيت

فزعم أنه ليس على التمنى، ولكنه بمنزلة قول الرجل: فهلا خيرا من ذلك، كأنه قال: ألا تروننى رجلا جزاه الله خيرا . وأما يونس فزعم أنه نون مضطرا. وزعم أن قوله: (لا نسبَ اليوم ولا خلةً) على الاضطرار .. والذى قال مذهب" .

---

(١) ٢ : ١٢٧، ١٢٨ .

(٢) ١ : ٢١٨ .

(٣) ١ : ٣٥٩ .

ولكن سيبويه مال في أكثر المواضع التي اختلفا فيها إلى رأي الخليل، وفضله على رأي يونس. قال مثلا(١): "إذا حقرت رجلا اسمه (قبائل) قلت: قُبيئل، وإن شئت قلت: قبيئيل، عوضا مما حذفت. والألف أولى بالطرح من الهمزة لأنها كلمة حية لم تجئ للمد، وانما هي بمنزلة جيم مساجد وهمزة برائل، وهي في ذلك الموضع والمثال، والألف بمنزلة ألف عذافر، وهذا قول الخليل. وأما يونس فيقول: قبيِّل، يحذف الهمزة إذ كانت زائدة كما حذفوا ياء قراسية وياء عفارية. وقول الخليل أحسن كما أن عفيرية أحسن" .

وحكم على رأي يونس في بعض الأحيان أنه مذهب، ولكن السماع عن العرب يخالفه. قال(٢): "سألته عن قوله: من دونٍ، ومن فوق، ومن تحت .. فقال: أجروا هذا مجرى الأسماء المتمكنة لأنها تضاف وتستعمل غير ظرف. ومن العرب من يقول: من فوقُ، ومن تحت، يشبهه بقَبْلُ وبعد .. وكذلك من أمامٍ، ومن قدام، ومن وراء .. وزعم أنهن نكرات كقول أبي النجم :

* يأتي لها من أيمن وأشمل *

وزعم أنهن نكرات إذا لم يضفن إلى معرفة كما يكون أيمن وأشمل نكرة. وسألنا العرب فوجدناهم يوافقونه .. وأما يونس فكان يقول: من قدامَ، ويجعلها معرفة. وزعم أنه منعه من الصرف أنها مؤنثة .. وهذا مذهب، إلا أنه ليس يقول أحد من العرب" .

وبالرغم من ذلك توجد بعض المواضع التي فضل فيها سيبويه قول يونس على قول الخليل . وعلل ذلك بأن رأي الخليل خالف المألوف من كلام العرب، قال

(١) ٢ : ١١٧ . وانظر ١٣٧ .

(٢) ٢ : ٤٦ - ٧٠ .

فى تصغير سفرجل وفرزدق ونحوهما[1]: "فتحقير العرب هذه الأسماء سُفيرج وفريزد .. وإن شئت ألحقت فى كل اسم منها ياء قبل آخر حروفه عوضا. وانما حملهم على هذا أنهم لا يحقرون ما جاوز ثلاثة أحرف إلا على زنته وحاله لو كسروه للجمع، إلا أن نظير حرف اللين الثالث الذى فى الجمع الياء فى التصغير، وأول التصغير مضموم، وأول الجمع مفتوح .. فالتصغير والجمع بمنزلة واحدة فى هذه الأسماء .. وإنما منعهم أن يقولوا: سفيرجل، أنهم لو كسروه لم يقولوا: سفارجل .. وهذا قول يونس. وقال الخليل: لو كنت محقرا هذه الأسماء لا أحذف منها شيئا – كما قال بعض النحويين – لقلت: سُفَيرجْل – كما ترى – حتى يصير بزنة دنينير. فهذا أقرب وإن لم يكن من كلام العرب" . وقد انتشر رأى يونس هذا، وكانت له الغلبة فى كتب النحو بعد أن ارتضاه سيبويه .

وحكم أحيانا على رأى الخليل بالبعد[2]، ورأى يونس بالقوة. قال مثلا[3]: "سألت الخليل عن القاضى فى النداء، فقال: أختار: يا قاضى، لأنه ليس بمنون كما أختار هذا القاضى. وأما يونس فقال: يا قاض. وقول يونس أقوى، لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا فى غير النداء كانوا فى النداء أجدر لأن النداء موضع حذف: يحذفون التنوين، ويقولون: يا حار، وصاح، ويا غلام .." ويبدو أن سيبويه غفل عن أن حذف الياء من (قاضى) كان بسبب التنوين، فلما يحذف التنوين لا يوجد سبب للحذف.

وتدلنا هذه الأمثلة القليلة من الفيض الغزير فى كتاب سيبويه أن يونس بن حبيب كان شخصية مستقلة، تأخذ من شيوخها، فتتفق معهم بقدر وبعد تمعن، وتختلف

(١) ٢ : ١٠٦ .
(٢) ١ : ٤٢٩ .
(٣) ٢ : ٢٨٩ .

معهم حين ترى رأيا غير ما قالوا. فلا تبالى باتفاق ولا اختلاف، وإذ كان شيوخ يونس أئمة المدرسة البصرية، كان كل اختلاف بينه وبينهم مبعدا بينه وبين هذه المدرسة، وخاصة إذا اتفق معاصره الخليل مع الشيوخ. ولكن العامل الأول الذى باعد بينه وبين المدرسة البصرية هو اختلافه مع الخليل. فقد وجد الخليل تلميذا مخلصا معجبا، دوّن آراءه، وفسرها، وعللها، ونافح عنها، فى كتاب. ولم يجد يونس غير ذلك التلميذ يفعل معه الأمر نفسه. ولكن نظرة التلميذ للرجلين لم تكن واحدة .

وبالرغم من ذلك لم يعدم يونس من يتقبل بعض هذه الآراء التى خالف فيها شيوخه ومعاصريه. فقد جلس بين يديه جماعة من أهل الكوفة، وجدوا فيه – بعد وفاة الخليل – أعظم النحاة، واغترفوا من علمه، وتقبلوا بعض آرائه ودافعوا عنها. وأضرب مثالا لذلك بآرائه فى إعمال حرف الجر المحذوف[١]، والندبة[٢]، ونون التوكيد الخفيفة[٣]. ولكننى يجب أن أعترف أنهم خالفوه فى بعض أقواله. فقد أجاز التمييز بغير، تقول: "لى عشرون غيره" ومنع ذلك الفراء[٤]. واشترط البصريون لاعمال (ما) عمل ليس ألا ينتقض النفى بها نحو ما زيد إلا قائم. أما يونس فأغفل هذا الشرط وأجاز أن تقول: ما زيد إلا قائما. ولم يوافقه الكوفيون كل الموافقة، ولا خالفوه كل المخالفة، بل فصلوا الأمر. فذهبوا الى أنه إذا كان ما بعد إلا منزلا منزلة ما قبلها أعملت نحو ما زيد إلا زهيرا، أما إذا كان هو الأول نفسه فمنعوا إعمالها مثل ما زيد إلا أخوك. وأجاز الفراء الإعمال أيضا إذا كان ما بعد إلا وصفا نحو ما زيد إلا قائما[٥].

---

(١) الإنصاف ٣٩٣ . الأشمونى ٣٠١ .

(٢) الإنصاف ٣٦٤ . الفراء ١٣٤ . الأشمونى ٤٦٥ .

(٣) الإنصاف ٦٥٠ . الفراء ١٣٣ . الخصائص ١ : ٨٨ ، ٩٢ . الأشمونى ٥٠٣ .

(٤) أبو حيان: منهج السالك ٢٢٠ .

(٥) أبو حيان ٦٢ .

ووجد يونس من النحاة بعد عصره الموقف نفسه، رفضوا منه بعض ما قال، وقبلوا بعضه. علق أبو حيان[1] على البيت :

أفيقوا بنى حرب وأهواؤنا معا   وأرحامنا موصولة لم تقصب

فقال: واختلف النحويون فى هذه الفتحة التى فى (معا). فذهب سيبويه والخليل الى أنها فتحة إعراب كفتحتها حالة الإضافة والكلمة ثنائية اللفظ حالة الإفراد وحالة الاضافة .. وذهب يونس والأخفش الى أنها كفتحة تاء فتى، وأنه حين أفردت رد إليها المحذوف وهو لام الكلمة فصار مقصورا. وقال المصنف: هو الصحيح. يعنى مذهب يونس والأخفش .. والصحيح ما ذهب إليه سيبويه والخليل"

وارتضى أبو حيان مذهب يونس فى العطف على المجرور دون إعادة جاره[2]، وعدم العطف بلكن[3]، وبعض المسائل الأخرى[4] .

ونخلص من دراسة ما بقى من اقوال نحوية أدلى بها يونس بن حبيب أن كثيرا منها نطق به ردا على أسئلة وجهت إليه، فى قضية نحوية آونة، وفى بيت من الشعر أخرى، وفى آية من القرآن ثالثة. وكان يونس فى بعض الأحيان هو الذى يطرح القضية أو ينشد الشعر لاستطلاع رأى تلاميذه، ثم يأتى بما عنده .

وعندما نستقصى هذه الأقوال، ونصنفها، نكاد لا نجد بابا من أبواب النحو ليس للرجل أقوال فيه. وبالرغم من ذلك يلفت النظر منا الأبواب الصرفية. فقد كان له فيها جولات أكثر وأبرز من جولاته فى أبواب النحو. ونضع على رأى

---

(1) ٢٩٥ .

(2) البحر المحيط ٢ : ١٤٧ – ٨ .

(3) البحر المحيط ١ : ٣٢٧ . ارتشاف الضرب ٢٧٣ .

(4) منهج السالك ١٨٦ .

الأبواب الصرفية التصغير، والنسب، والجموع، ثم صيغ الفعل .

ولذلك اعتمد عليه سيبويه فى بعضها اعتمادا تاما. وأعلن فى أحد أبواب التصغير[1]: "وجميع ما ذكرت لك فى هذا الباب وما أذكر لك فى الباب الذى يليه قول يونس" . فاذا وضعنا إلى جانب هذين البابين أبواب النسب التى اعتمد فيها على يونس والخليل تبين لنا قدر ما أخذه سيبويه من شيخه .

ويلفت النظر فى النحو أبواب النداء التى اعتمد عليه سيبويه فيها وعلى الخليل. اعتمادا كبيرا، وأبواب الممنوع من الصرف، والاستثناء، والضمائر، والنعت .

ولم يكن كل ما تفوه به من أقوال من ابتكاره، بل كثيرا ما روى عن شيوخه، وأكثر الرواية عن أبى عمرو منهم. ولم يلغ شخصيته أمام أقوالهم، بل الواضح أن كل ما رواه عنهم ولم يعقب عليه كان موافقا عليه. أما ما لم يوافق عليه فلم يقتصر على روايته بل كشف عن رأيه فيه، حتى لو خالف فيه أكثر من واحد من أساتيذه، بل لو خالفهم وخالف معهم بعض معاصريه.

وأدى به ذلك الى الانفراد بمجموعة من الآراء التى لم يتابعه فيها جمهور البصريين، أو لم يجد رفيقا فيها غير بعض من جاء بعده منهم كأبى الحسن الأخفش، أو وجد رفاقا له فيها خارج بلدته، ساروا معه فى بعضها الشوط كله، وفى بعضها الآخر بعض الشوط. ثم منحته الأجيال التالية واحدا أو أكثر ممن رضوا عن هذا الرأى أو ذاك من آرائه .

وكان طبيعيا من معاصريه، وخاصة من البصريين، أن يصفوه بسبب ذلك بأنه "له قياس فى النحو ومذاهب ينفرد بها"[2] .

---

(١) ٢ : ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . السيرافى ٢٧ . البغية ٣٦٥ . ياقوت ٢٠ : ٦٤ . القفطى ٢ : ٣٦٥ .

ونحن عند ما نحاول أن نتبين منهج يونس فى دراساته النحوية نجد أنه خاض فى الأبواب النحوية: المسموعة عن العرب والفرضية التى كان النحاة يتخذون منها تدريبا عقليا لتطبيق ما يرون من قواعد نحوية. قال سيبويه عن ذا، وذى، وتا، وألا، وألاء[١]: "فاذا صار اسما عمل فيه ما عمل بـ (لا) لأنك قد حولته إلى تلك الحال كما حولت (لا). وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء. إلا أنك لا تجرى (ذا) اسم مؤنث لأنه مذكر، إلا فى قول عيسى فانه كان يصرف امرأة سميتها بعمرو. وأما (ذى) فبمنزلة (فى)، و (تا) بمنزلة (لا). وأما (أُلاء) فتصرفه اسم رجل وترفعه وتجره وتنصبه وتغيره كما غيرت (هيهات) لو سميت رجلا به .. " .

ونتبين فى أقوال يونس أحكاما فى القياس الذى يستنبطه، واستبانة لأبعاده .. قال سيبويه[٢]: "سألت يونس عن قوله: متى تقول أنه منطلق. فقال: إذا لم ترد الحكاية وجعلت (تقول) مثل (تظن) قلت: متى تقول أنك ذاهب. وإن أردت الحكاية قلت: متى تقول إنك ذاهب، كما أنه يجوز لك أن تحكى فتقول: متى تقول: زيد منطلق، وتقول: قال عمرو: إنه منطلق. فإن جعلت الهاء عمرا أوغيره فلا تعمل. قال: كما لا تعمل إذا قلت: قال عمرو: هو منطلق. فقال: لم تعمل ها هنا شيئا، وإن كانت الهاء هى القائل. كما لا تعمل شيئا إذا قلت: قال، وأظهرت هو، فقال لا تغير الكلام عن حاله قبل أن تكون فيه (قال) فيما ذكرناه .. " .

وكان عندما يضع قياسا ما يطرده ويعممه، نرى ذلك فى عدة مواضع. فنحن نقول: أعطيتكمْ ذلك، ونسكن الميم فاذا اتصل بها ضمير آخر حركناها وقلنا: أعطيتكمه وأعطيتكمها. ولكن يونس طرد القاعدة العامة، وطبقها على الحالة الثانية

---

(١) ٢ : ٤٢ .

(٢) ١ : ٤٧١ .

وقال: أعطيتكمْه، وأعطيتكمْها. والأول أكثر وأعرف، كما يقول سيبويه[1] .

وطرد قاعدة عدم التقاء الساكنين حتى فى الحالات التى أباح العرف فيها ذلك.قال سيبويه[2]: "تقول: هذا زيد بُنيّ عمرو، فى قول أبى عمرو ويونس، لأنه لا يلتقى ساكنان. وليس بالكثير فى الكلام ككثرة (ابن) فى هذا الموضع" .

وطرد فى الممنوع من الصرف القاعدة التى تندرج تحتها الكلمات الصحيحة على الكلمات المعتلة، حتى خطأه الخليل. قال سيبويه[3]: "أما يونس فكان ينظر الى كل شىء من هذا إذا كان معرفة: كيف حال نظيره من غير المعتل معرفة، فاذا كان لا ينصرف لم يصرف، يقول: هذه جوارِى قد جاء، ومررت بجوارى قبل. وقال الخليل: هذا خطأ، لو كان من شأنهم أن يقولوا هذا فى موضع الجر لكانوا خلقاء أن يلزموها الرفع والجر إذ صار عندهم بمنزلة غير المعتل فىموضع الجر .. " .

وقد أدى به هذا الطرد للقياس إلى مخالفة المسموع من العرب فى عدة مواضع، وكان من الأسباب التى أفردته بين النحاة. علق الرمانى على القياس الأخير ليونس فقال[4]: "قياسه على المعتل أولى به، وهو جوار فى الجمع، لأن الباب كله على ياء فى آخر الاسم قبلها كسرة فيما لا ينصرف. وذلك يقتضى الحذف والعوض .. فلا وجه لمعصيته مع صحة إجرائه على منهاج واحد" .

وبالرغم من ذلك اتفق يونس مع الخليل فى كثير من الأحكام النحوية، والعلل، بل فى بعض المبادئ العامة التى كان الرجلان يترسمانها فى قواعدهما. قال

---

(١) ١ : ٣٨٩ .

(٢) ٢ : ١٤٩ .

(٣) ٢ : ٥٨ . وانظر ٧٣ .

(٤) الرمانى ٢١٥ .

سيبويه فـي بـاب التصغـير[1]: "العـوض قـول يونـس والخليـل" يريـد التعويـض عـن الحروف المحذوفة للتصغير بحرف علة .

وكان المتوقع من رجل كيونس يميل إلى طرد ما يضع من قواعد ومقـاييس أن ينفى ما يخرج عنها ويخطئه. ولكنه لم يكـن يفعـل ذلـك، وكـان يفـزع إلى الضـرورة الشعرية، فيرى أن الوزن هو الذى أجبر الشاعر على المخالفة .

فالدكتور أحمد أمين على حق حين يقول[2]: "فهم يقولون: إن ابن أبى إسحاق الحضرمى وتلميذه عيسى بن عمر كانا أشد ميلا للقياس، وكانا لا يأبهان بالشـواذ، وكانا لا يتحرجان من تخطئة العرب. وكان أبـو عمـرو وتلميـذه يونـس بـن حبيـب البصريان أيضا على عكسهما: يعظمان قول العرب، ويتحرجان من تخطئتهم" .

ويؤدى بنا هذا إلى تصديق قول القدماء حين يقولون[3]: "كـان النحـو أغلـب عليه"، وإلى أن من وصفه فقال[4]: "بارع فى النحو" قد منحه بعض حقه، ومن ناظر بينه وبين أبى زيد الأنصارى[5] فقال: "كان يونس أعلـم مـن أبـى زيـد بـالنحو" قـد قَصَّر به.

فأقرب الأقوال إلى ايفاء الرجل حقه ما قاله ياقوت[6]: "إمام نحاة البصـرة فـى عصره، ومرجع الأدباء والنحويين فى المشكلات". فقد كان فـى الشـطر الأول مـن

---

(١) ٢ : ١١٠ .

(٢) ضحى الاسلام ٢ : ٢٩٦ . وانظر السيرافى ٢٢ .والزبيدى ٢٨ . والأزهرى ٤٠ .

(٣) أبو الطيب ٢١ . الزبيدى ٤٨ . سمط اللآلى ١٩٥. المزهر ٢ : ٣٩٩ . القفطى ٢ : ٣٦٣ .

(٤) السيرافى ٢٧ . البغية ٢ : ٣٦٥ . القفطى ٢ : ٣٦٥ .

(٥) السيرافى ٤١ .

(٦) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤ .

حياته ثانى اثنين فى البصرة، لا يذكر نحوى معهما، ولا يؤخذ النحو عن غيرهما: يتفقان، ويختلفان، فتصحب الحجة الخليل أكثر مما تصحب يونس. ولكنها لا تتخلى كل التخلى عن الأخير، ولا تتركه يتردى فى الحضيض. فما أُخذ عليه كان ثمرة معرفته الواسعة باللغات والنوادر: الفصيح منها والضعيف، وثمرة قياس على شىء لم يفطن إلى أنه لا يتمتع بكل صفات ما يقاس عليه، وثمرة تعميم فى مواضع لا يليق بها إلا التخصيص. ولكن الرجل بقى علما مشرقا فى بلدته، وازداد سطوعا بعد وفاة زميله، ثم انتقل علمه إلى الكوفة فكان واحدا من الينابيع الثرة التى اغترف منها أهلها. وبقيت أقواله أو أكثرها بين يدى العلماء يعودون إليها، ويعيدون النظر فيها، فيتفقون مع معاصريه آنا، ويخالفونهم أخرى، ويرون فيها الحق المغبون .

محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة